قبض الريح

بقلم

ابراهيم عبد القادر المازني

دار الشعب

رقم الايداع ١٩٧١/١٥٥٢

مقدمة

كتبت هذه الفصول وغيرها — كثيرا غيرها — فى الفترة الطويلة التى كان فيها شبح الماضى — أى نعم ، طيف الماضى — يعايشنى ، وكان أقرب جيرانى إلى نفسى ، السماء . وكنت يومئذ — ومازلت — فى رقعة من الأرض مدحوة للتفكير والأحلام وللموت . قد طال عهدى بها وإنى لها ليكبر فى وهمى — حين يستغرقنى روحها — أنى ههنا كنت قبل ميلادى ، وإنى بعضها ، وقطعة منها ، ولو علم الناس . وهى جمة الحالات ، وإن كان ظاهرها لا يكاد يلحقه تغيير ، وأقوى ما يروعنى من أطوارها ، فقدانها الوعى ، فلو نفخ فى الصور ما تنبهت . وقد تبدو لى كأن يد القدر التى بسطتها قد ملتها وانصرفت عنها وشغلت بسواها فيدركنى عليها العطف . وكثير ما خيل إلى كأنى ألمح فيها عروق « العلة الأولى » وشرايينها وأنسجتها ، وإنى أحس لخفقها وأسمع نبضها . وهى ، على تفكك ذراتها ، كل كامل فى رأى معين وفى إحساس القلب . وربما توهمتها مخاً عارياً ينشىء ما لا يدرى . وقد يتمثل لى فيها رأى أرضنا — أو ما أحسبه رأيها — فى الحياة والمساعى حتى لاأكاد أسمعها تقول بلسان هذه الصحراء للناس أو للمقادر .

« ما جدوى هذه المساعى ؟ ما خير أن تزخر على ظهرى الحيـاة ؟ لأى غاية أو فى أى سبيل إرهاقى وكدى وإملالى على الأدهار ؟ إنه عبث متواصل فى الوسع رفع مؤونته بالمحو والسلب . وقد تكون لهذا حكمة ، ولكنها حكمة كانت تكون عندى أعدل لو أنها شاءت الا تكون هذه الحيوانات » .

وما ضربت فى هذه الصحراء ، أو صافح وجهى نسيمها ، أو سفت الرياح على رمالها ، أو أدرت عينى فى عريها الأزلى ، إلا هتف بى من ناحيتها هاتف يقول ابن داود :

« باطل الأباطيل ، الكل باطل . ما الفائدة للإنسان من كل تعبه الذى يتعبه تحت الشمس ؟ دور يمضى دور يجىء ، والأرض قائمة إلى الأبد ..: كل الأنهار تجرى إلى البحر ، والبحر ليس بملآن . . . كل الكلام يقصر. لا يستطيع الإنسان أن يخبر بالكل . العين لا تشبع من النظر . والأذن لاتمتلىء من السمع . ما كان فهو مايكون ، والذى صنع فهو الذى يصنع ، فليس تحت الشمس جديد....

« أنا الجامعة ، كنت ملكا على إسرائيل فى أورشليم ، ووجهت قلبى للسؤال والتفتيش بالحكمة عن كل ما عمل تحت السموات . . . فإذا الكل باطل وقبض الريح ! »

وأنا أيضا كالجامعة وجهت قلبى إلى المعرفة ، وامتحنت نفسى بالسؤال وعللت روحى بالتفتيش « بنيت لنفسى « آمالا » غرست لنفسى « أوهاما » عملت لنفسى جنات وفراديس غرست فيها « أحلاما » من كل نوع ثمر ... وهذا كان نصيبى من كل تعبى ... قبض الريح ! » .

واستنفد العناء مجهودى كما تنفد السحابة أراقت ماءها على الأرض .

وكل بما عنده يجود ! زرعت حصى فى أرض صفوان وهذا حصادى وقبضت الريح من كل تعبى تحت الشمس وهأنذا أؤديها إلى القارىء وأطلقها عليه كما تلقيتها لو يقنع الطالب المدل ! وقد خرجت كما سيخرج القارىء وكما سنخرج جميعاً من هذه الدنيا ، وليس فى يدى شىء .

إبراهيم عبد القادر المازنى

بين القراءة والكتابة

مضت شهور لم أكتب فيها كلمة في الأدب ، لأني كنت أقرأ ! والقراءة والكتابة عندي نقيضان ، وقد كنت — وما زلت — إمرءاً يتعذر عليه ، ولا يتأتي له ، أن يجمع بينهما في فترة واحدة . ولكم أطلت الفكرة فى ذلك فلم يفتح الله على بتعليل يستريح إليه العقل ويأنس له القلب . وما أظن بى إلا أن الله ، جلت قدرته ، قد خلقني على طراز « عربات الرش » ! التى تتخذها مصلحة التنظيم — خزان ضخم يمتلىء ليفرغ ، ويفرغ ليمتلىء ! وكذلك أنا فيما أرى : أحس الفراغ في رأسى ، وما أكثر ما أحس ذلك ! فأسرع إلى الكتب ألتهم ما فيها وأحشو بها دماغى هذا الذى خلقه الله لى خلقة عربات الرش كما قلت ! حتى إذا شعرت بالكظة ، وضايقني الامتلاء ، رفعت يدى عن ألوان هذا الغذاء وقمت عنه متثاقلا متثائباً مشفقاً من التخمة ، فلا ينجينى إلا أن أفتح الثقوب وأسح ؟! وهكذا دواليك !

ولكم قلت لنفسى : أهذا الذي ركبه الله لك يا مازنى بين كتفيك رأس كرءوس الناس أم معدة أخرى؟ ؟ وأداة نظر وإدراك وتفكير هو أم مخزن يكتظ حيناً ويخلو أحياناً تبعاً لانتقال الأحوال بك ؟ والحق أقول إن الجواب يعيينى ! وإذا لم اكن قد ركبت من الوهم شر الحمير ! فإن الناس فى الأكثر والأعم إنما يعالجون الكتابة لأن في رءوسهم فكرة أو خالجة ، كائنة ما كانت ، يبغون العبارة عنها والإفضاء بها ، ولست أراني كذلك ، ولقد يخيل إلى فى بعض الأحايين أن في نفسى معنى معيناً ، ويؤكد ذلك عندى ويقرر اعتقادى به ، ما أحسه من جيشان الصدر واضطرابه ، فأذهب التمس هذا المعنى أو الخاطر فإذا به قد تبخر ! وإذا بى كإبى حين يجلس إلى جانبي ويحاول أن يقبض على الدخان الذى يتصاعد من سجارتي ، وأنا

أضحك من هذا الذى يحاوله ، وألهو به وأقول إنه يجرب فى عالم المحسوسات بعض ما أعانيه في عالم المعنويات ! وكثيراً ما يدفعنى إلى الكتابة إحساس غامض إلا أنه من القوة بحيث لا يسعنى مغالبته فأتناول القلم ، وانا كالمسحور ، وكأن القلم هو الذى يثب إلى يدى ، كما ينجذب الحديد إلى المغناطيس ، وأسرع في الكتابة وأمضى فيها إلى غايتها المقدورة ، شأنى في ذلك شأن الذى يسير وهو نائم ! ينهض من فراشه ويخطو ، ويذهب هنا وههنا ، ويتكلم أو يباشر بعض الأعمال ، ولكن وعيه ليس تاماً ، وإرادته لا دخل لها في شىء مما يصدر عنه .

وأحياناً أفعل هذا : أسأل نفسى « أفى رأسك شىء ؟ » وأعنى بالشىء ما له قيمة ، لا أى شىء على الإطلاق ، فتساورنى الشكوك فأنقر بأصبعى على جوانب رأسى كمن يريد أن يتبين من الرنين مبلغ الخلو ! وربما أسفت لأنى لا أستطيع أن أتناول رأسى هذا وأن أقلبه بين كفي وأن أفعل به ما يفعل المرء حين يختبر البطيخ ! ثم أقول لا بأس ! القلم حاضر والورق تحت عينى ، فلأقم حد هذا على صفحة ذاك ، ولأفتح ثقب هذه « الحنفية » ثم فلأ نظر ماذا يقطر منها أو يسيل . أو لا يدير أحدنا صمام « الحنفية » أحياناً ليرى أفيها أم ليس فيها ماء ؟؟ نعم ! وكذلك أمتحن نفسى من حين إلى حين كلما شككت وكبر في ظنى أن رأسى قد أصبح فارغا ! ولا أفعل هذا ، حين أفعله ، إلا على سبيل الاختبار وطلباً للاطمئنان لا رغبة في الكتابة ولا عن قصد إليها . حتى إذا وجدت القلم يجرى وألفيت مراعفه تقطر ؛ قلت الحمد لله ! وأقصرت !

وقد أبدأ المقال معتمداً شيئاً بعينه فيجرى القلم بخلافه ! وشبيه بهذا أن تريد السفر إلى الاسكندرية فتحملك رجلاك إلى قطار يذهب بك إلى السويس ! وأحسب ذلك إنما يكون كذلك لأن الكلام يفتح بعضه بعضاً وقد يفتنك وأنت تكتب ؛ معنى يعن لك فيلهيك عما كنت فيه ويدفعك

من طريقه إلى غير ما قصدت إليه . وقد تأخذ فى كلام تحسبه هيناً فتتكاءدك الوعور وتتعاظمك العقبات فتميل عنه إلى ما هو ألين . ومن هنا كان آخر ما أكتبه هو العنوان ! وكثيراً ما استخير الله فى الكتابة على نية معقودة ثم أعدل فى بعض الطريق عنهـــا وأتحول إلى سواها ويجيء الكلام متناولا طرفاً من هذا وأطرافاً من ذاك ويعجزنى أن أختزل مضمونه فى عنوان فأدع المقال بلا رأس وأقدمه هكذا إلى الأستاذ أمين بك الرافعى فيضع هو — جزاه الله عني خيراً — ما يوافقه من العناوين !

وأمرى مع الكتب أغرب . كنت فى أول عهدى بها — أى منذ عشرين سنة أو نحو ذلك — أذهب فى أول كل شهر إلى واحد من باعتها فيتقدم إلى العامل سائلا عن حاجتي فأبينها له فيرفع رأسه إلى الرفوف ويدور حول نفسه وهو في مكانه ثم يلتفت إلى وعلى شفتيه — دون عينيه — ابتسامة جهل وغباء ، ويهز لى رأسه آسفاً . فأنحيه عن الطريق وأمضى إلى الرفوف وأجيل عيني فيها وآخذ منها ما يروقنى وأنصرف عن الحانوت بأثقل من حمل حمار ! وأغرق فيها بقية الشهر إلى ما فوق الأذنين إن كان فوقها شيء يستحق الذكر ! وكنت لا أتخطى عتبة البيت إلا متأبطاً كتاباً ، ولا تمضى على ليلة إلا طلعت فى بعضها قليلا أو كثيراً ، وكانت الكتب أنيسى فى وحدتى وسميرى فى خلوتى ، وكنت أستغنى بها عن متع الحياة ولذات العيش وأقول إنها « تدخل في متناول الحس » والعواطف و المدركات وكل ماله وجود فى العقل » وإنها توقظ الحواس الخامدة والمشاعر الراكدة وتملأ القلب وتشعر النفس كل ما تستطيع الطبيعة البشرية احتماله وكل ماله قدرة على تحريكها وابتعاثها ، وتدرب المرء على الاستمتاع بتدبر عظمة الجلال والابد والحق ، وأنها تمثل ذلك للاحساس وتحضره للذهن وتكشف لنـــا عن وجوه الألم والحزن والخطأ والاثم ، وأنها تعين القلب على تعرف الهول والفزع والسرور واللذة وتخنق بالوهم على جناح الخيال وتفتنه بسحر عواطفه وخواطره ، وأنها تسد النقص فى تجارب المرء وتثير فيه تلك العواطف التى تجعل حوادث

الحياة أشد تحريكاً لها وتجعله أشد استعداداً تمبول المؤثرات على اختلاف أنواعها ودرجاتها ، لأنه ليس بالإنسان حاجة إلى التجريب الشخصي لتتحرك فيه هذه العواطف بل حسبه « ظاهر » التجريب الذى تهيوه له الكتب . وإنما تستطيع الكتب أن تقوم مقام التجربة الشخصية الواقعة بما تمثل للمرء لأنه كل حقيقة واقعة يجب أن تمثل في الرأى قبل أن يتعرفها الذهن أو تؤثر فيها الإرادة ، ومن أجل ذلك كان سواءاً على المرء أن تؤثر فيه الحقيقة الواقعة بالذات أو يأتى التأثير من طريق آخر كالصور والرموز التي تمثل هذه الحقيقة ، فإن فى طاقة الإنسان أن يصور لنفسه ما ليس له وجود حتي يعود وكأن له جسما يحس ويلمس ، فسيان عند الإنسان أن يؤثر فيه الشى أو مثاله ، لأنه يحرك فية عوامل الفرح والحزن مثلا على كل حال ، وسواء أكان الشيء حاضراً أم ماثلا في الخيال بصورته ، فإن الإنسان لا يسعه إلا أن يحس حركات الغضب والبغض والرحمة والقلق والفزع والحب والإجلال والعجب والشهرة . فكأن هذه الرموز هي اللسان المترجم — كما يقول هوريس — عن الحقائق .

كنت أقول مثل ذلك وأصدقه ، وكأن مثلى كمثل أشعب الذى حكوا أن صبية هتفوا به وأثقلوا عليه فأراد أن يصرفهم عنه فقال لهم أن فى مكان كذا وليمة فاذهبوا إليها وأصيبوا منها ، فلما مضوا عنه بدا له الأمر كأنه صحيح فذهب يعدو في أثرهم . وكما أن أشعب عاد بالخيبة والحسرة والسخر من نفسه كذلك انقلبت عن الكتب ، فلا أنا أفدت شيئاً سوى قسع الشباب وإضاعة فرصته وإراقة مائه فى تلك الصحراء العارية ، ولا أنا فهمت الحياة كما ينبغى أن تفهم أو سددت نقصاً في تجاربي أو استطعت أن استغنى « بظاهر » هذا التجريب عن التجريب الشخصي ، وشر من ذلك أنى اطلعت من هذه الكتب على صورة أو صور للحياة ليس أكذب منها ولا أبعد ! ولا نكران إنها أيقظت نفسي وفتحت عيني ونبهت حواسي وابتعثت

مشاعرى وجعلتنى أشد تأثراً بالحياة وتحركاً لها واستعداداً لتلقي مؤثراتها ولكن أليس معنى ذلك أنها جعلتنى أتعس وأشقى مما كنت أكون لو ظللت أرتع فى بحبوحة الجهل والغفلة والبلادة ولم أفز بهذه النعمة التى لم أعد بها غنياً ؟ ماذا يكون لو أخذنا كنوز هذه العقول ورمينا بها من حالق للرياح والمدر ، كما أقول من قصيدة صنعتها بعد أن فطنت إلى ما أضعت من عمرى ؟

كم غصت فى لجة الحياة فما ... فزت بغير الصخور والحجر !
وكم نفضت اليدين من حجر ... حسبته درة من الدرر ؟
فخل كأس العفاء تسلبنى ... كنزى وتسحو سلاسل الخبر
ماضرنى لو جهلت ما علمت ... نفسى وما قد أفادنى نظرى ؟
أو لو نسيت الذى شعرت به ... في كبرى الآن أو لدن صغرى ؟
أو لو سلوت الذى كلفت به ... على الذى كان فيه سكرى ؟
أو لو فقدت الذى فرحت به ... وما وجدنا فى حدة الظفر ؟
أثم صوت تعيـــد نبرته ... إلى ذكر الربيع والزهر ؟
أثم عين تثير نظرتهـــا ... أحلام نفسى فى ريق البكر
وتنشر اللذة المضيئة لى ... حلماً من العيش جد مبتكر ؟
نعم لعمرى فى الأرض زينتها ... من مسمع فاتن ومن نظر
وروضة العيش جـــد حالية ... من زهر مونق ومن ثمر
كأنها لافـــترار بهجتها ... تحير نطقـــاً لمدمن البصر
واهاً لقمريهـــا إذا اتسقت ... أسجاعه واستراح للسحر ؟
واهاً لسحر فى لحظ نرجسها ... يسطو بوقع السجو والفتر ؟
واهاً لأيكاتها إذا همس الـ ... نسيم في أذنها مع القمر ؟

لكن أغصانهن يا أسفا | بعيدة من منال مهتصر
أصبت في العزم ، لا الشعور فإن | أدرت لحظي في الشيء ، لم يدر
وإن مددت اليدين خانهما | عزم الشباب الجريء ذي الأشر
يذعرني الشيء كان يجذبني | لشد ما أستجير بالحذر ؟
أحمل عبئاً من السنين فما | عسى وراء الغايات منكدري ؟
ولي من الذكريات حاشية | في حيث أمضي ، محشودة الزمر
فهاتها أذعر الشجون بها | حتى أراها تطير كالشرر
لم لا أبت الذي يقيدني | بما مضى وانقضى من العصر ؟
إني أراني قد حلت وانتسخت | مع الصبي سورة من السور
وصرت غيري فليس يعرفني | — إذ رآني — صباي ذو الطرر
ولو بدا لي لبت أنكره | كأنني لم أكنه في عمري
كأننا اثنان ليس يجمعنا | في العيش إلا تشبث الذكر
مات الفتى المازني ثم أتى | من مازن غيره على الأثر

وما أحسبني بالغت ؛ فقد مات « الفتى » المازني حقاً ولم يبق منه شيء وإني لأمر الآن بالمكاتب فأشيح بوجهي عنها وأغمض عيني دونها ، ويردني الكتاب بكرهي فأتركه حيث يقع وأهمله الأسابيع والشهور ، وإذا فتحته اكتفيت بأن أعبره تزجية للوقت ، ولم أبال من أي موضع بدأت ، وسيان عندي أن أقرأه من أوله إلى آخره ، أو من آخره إلى أوله أو أن لا أقرأه ، وقد تعاودني الحمى القديمة ويتأوبني الحنين الماضي إلى الكتب ، فأدافع نفسي عنها ما استطعت ، فإن عجزت وغلبت على أمري طاوعتها على حذر وسايرتها متحفزاً ، وذهبت أتخير لها الكتب وأنتقيها ، ومهما يكن من الأمر فلست الآن ذلك الذي كان كأنما يعبد منها دمى وأصناماً ، وقد اغتنمت أول فرصة سنحت فبعتها جملة وتحريت بعد ذلك أن أزداد جهلا ؟

ولكن الزامر يموت وأصابعه تلعب ! كما يقول المثل العامى ، وللعادة حكم لايقوى المرء فى كل حين على مغاليته ، والنفس لا تطاوع المرء دائما على ما يريدها عليه من الخمود والتبلد ، وقد يزعج المرء أن يرى نفسه يقضى أيامه بطين الجسد وحده ، أو يموتها على الأصح ، فإن من الموت أن يستحيل الإنسان جثة خامدة المتقد لا ينقصها إلا الرمس . وما لا يصح سلوى ومتعة قد يصلح دواء ، وعسير على من تعود أن يحس الحياة بأعصابه العارية أن يروض نفسه على التبلد ويخلد إلى الركود . فلا عجب إذا كنت أقبل على المطالعة حينا بعد حين .

❋ ❋ ❋

ولقد قرأت فى هذه الفترة الطويلة طائفة صالحة وأخرى غير صالحة من الكتب بعضها فى الأدب والفلسفة ، على بغضى لها واستثقالى ظلها وعجزى عن فهمها ، وبعضها يزعمه واضعوه أدبا وفلسفة وهو ليس من ذلك لا فى كثير ولا فى قليل . وأحسب القراء لا يعنيهم إلا ما أخرجته لهم المطابع المصرية ، وهذا هو الذى سنقصر مقالاتنا عليه ونحاول أن نعقد له فصولا نستطرد فيها ومنها إلى أبواب من البحث متصلة بموضوعاته وسنبدأ (بحديث الأربعاء) الذى وضعه صديقنا الدكتور طه حسين ولسنا ندرى بأى كتاب آخر يمكن أن نثنى فان كتاب الدكتور يضطرنا إلى النظر فى أمور عديدة ، والخلاف بيننا وبينه طويل يتناول أصول المسائل ، ولنا فيمن كسر كتابه عليهم من مثل أبى نواس وبشار وغيرهما وفى العصر العباسى كله ، رأى يناقض رأيه ونظرة تختلف عن نظرته ، وحسبك دليلا على بعد ما بين الرأيين واتساع الهوة بينهما قوله عن أبى نواس (أما أبو نواس فأمره غير هذا كله ، لم يكن عذريا وما كان يستطيع أن يكون عذريا ، وهو الرجل الذى شك فى كل شىء ولم يؤمن إلا بالمجون واللذة يلتمسهما حيث يجدهما لا يتقيد فى ذلك بحرج وجناح ، ولم يكن عذريا

ولم يكن يتكلف أن يكون عذريا وإنما كان يسخر من العرب ومما كان العرب يتكلفون . لم يكن يتكلف العذرية وإنما كان يهتم باللذة وبلذة غير التى كان يهيم بها عمر بن أبى ربيعة) . . . إلى أن يقول « . . إن أبا نواس يكرهك حين تقرأ غزله بالغلمان على أن تعجب بهذا الغزل رغم مافيه من منافرة للطبع والخلق والدين إلخ » .

أما نحن فقد قلنا فى المقدمة التى وضعناها للجزء الثانى من ديواننا « فلا جرم كان الشاعر أحسن الناس وأعمقهم حكمة وأصحبهم إدراكا لخلال الخير وخصار الفضل — نقول للفضيلة والخير ولا نخشى أن يهز القراء رءوسهم إنكارا فان الشعر أساسه صحة الإدراك الأخلاقى والأدبى . ولست بواجد شعراً إلا وفى مطاويه إدارك أخلاقى أدبى صحيح وعلى قدر نصيب الشاعر من صحة هذا الإدراك الأدبى تكون قيمة شعره . ولا يتعجل القارىء فيحسب أنا نقصد إلى إظهـار الإحساس الدينى فى الشعر فليس كلامنا على مادة الشعر بل على مصادره وينابعه ، ولا ينبغى كذلك أن يستخلص أن الشاعر يجب أن يكون صاحب مبدأ عملى لا يتحول عنه ، فقد كان بيرنز الشـاعر الإنجليزى وأبو نواس وامرؤ القيس متقلبى وجوه الحياه ومظاهرها ولـكن نصيبهم مع ذلك من صحة الإدراك الأخلاقى والأدبى عظيم ، ولئن كان لهم معايب نؤاخذهم بها فقد أحالها الزمن هباء لا قيمة له ولا وزن ، وأنت خليق أن تنظر إلى ما وراء ذلك . فان أبا نواس أصح مبادىء وأنقى ضميراً من البحترى على كثرة ماتقرؤه للأول مما يروع ويخجل ، وكذلك امرؤ القيس أفطن إلى معانى الفضيلة وأعظم رجولة من أبى تمام وابن المعتز ، ولم يكن الأعشى على حبه الخمر واستهتاره بها وتخلعه فيها بالرجل الناضب الفضيلة الخ » إلى آخر ما قلنا يومئذ وكان ذلك فى يناير سنة ١٩١٧ ولقد غبرت أعوام ثمانية فلم تزدنا إلا اقتناعا بهذا الرأى الذى أشرنا إليه

إليه فى ذلك الوقت إشارة من لا يحس أن المسألة تحتاج إلى إفاضة .

ولقد سقنا لك هاتين العبارتين من كلام الدكتور وكلامنا لتعرف مدى الخلاف بين الرأيين ولتدرك ما فى المسألة من دقة وتعويص ، لا يسع المرء حيالهما إلا أن يسأل الله السلامة .

على شاطئ بحر الروم

بين البحر والصحراء!

أكتب هذا الفصل على شاطىء البحر الأبيض أو بحر الروم ، وقد كتبت الذى قبله على حدود الصحراء ، وللكلام كما للناس ، حظوظ ، والمعانى والخواطر أرزاق ، ولقد أذكر أنى كنت ذاهباً إلى مصر الجديدة مع طائفة من الأصدقاء فى واحد منهم شذوذ وكان يكتب فى الترام ! وأنه ليكتب كلمة « السؤدد » إذ انطفأ النور فخط « دالا » فى النور و « دالا » فى الظلام ! ولو انى كنت اليوم فى القاهرة وفى بيتى الذى اتخذته على « تخوم العالمين » لكان الأرجح فى الرأى والأقرب إلى الاحتمال أن يجرى القلم بغير مايسطره الآن ، فإن النفس كالزجاج الحساس تنطبع عليها وترتسم فيها صور ما يحيط بها ، ولقد كان العزم أن أقول غير ما أنا قائله ولكن المقادير قذفت بى إلى البحر ، لا فيه والحمد لله ، فتحلل العزم ، ومسح من اللوح ما كانت الصحراء قد نقشت عليه ، ولو خيرت لاخترت مقامى القديم ، ولآثرت أن أكون فى هذه الساعة التى أكتب فيها حيث كنت فى الأسبوع المنصرم : إلى يمينى الصحراء ، وإلى يسارى المقابر ! واحدة تعلو بى ، وأخرى تهبط ، وإذا استأثرت معانى الأبد والجلال بالقلب ردته إلى الدنيا ومصائر الخلق فيها هذه الأجداث المتلاصقة والعوالم الانسانيـة التى خرجت من التراب وعادت إليـه وتحللت واستسرت فيه :

غير أنى ألفيت نفسى جالساً على شاطىء بحر الروم أنظر إليه وأتأمل عبابه المزبد وموجه المتجدد ، والشمس تنحدر عنه وتبسط عليه أشعتها

المتوهجة ، وأواذيه كقطع الجبال المتقلعة تتدفع إلى الشاطىء وتستبق سيفه فيغيب بعضها فى بعض وترغى وترعد وتصفر وتهمس وترقص وتضحك وتمحو ما أخطه على الرمل ! ولا أدرى أذكرنى هذا المنظر ما أنستنيه الأيام من الأقاصيص التى كانت تسلينا وتروعنا وتعمر بها فضاء حيواتنا الصغيرة « العجائز من ذوات قرابتنا أو جيراننا ، إذ يجلس الطفل منا إلى إحداهن ويرهف أذنيه ويود لو صارت كل جارحة فيه مسمعاً ، وقلبه الصغير يخفق وكلما أغربت العجوز فى القصة وتبسطت فى وصف الجان والمردة أو السحرة وأسهبت فى سرد أعمالهم ، أدار هو لحظه خلسة فى المكان كالذى ينفضه بعينه أو يخشى أن يظهر له عفريت من أحد أركانه ، وراح يدنو منها ويزحف إليها حتى يلصق بها ، على حين كانت الفتيات الناهدات متكئات فى سكون على حوافى النوافذ أو الشرفات ، ووجوههن الصبيحة ، التى كأنما غذتها الررود ، يضيئها القمر الواجم السارى فى حاشية من النجوم اليتيمة العذراء التى ينقصها ، مثلهن ، الحب !

ولم يتغير البحر عما عهدته ! كل شىء فيه كما فى العصر الخالى إلا المدينة القائمة على ساحله فقد كانت فى بعض أيامها الخوالى تشغل مكان أثينا فلم يبق لها من سالف عزها إلا البوم والسفسطائيون ! حتى آلهة الاغريق استنكفوا على ما يظهر أن يتراجعوا إلى الاسكندرية بعد أن ثل الزمن عروشهم ونفاهم وشردهم عن ملك السماء ، ولم يرض ملك السماء ذو الخصل البيضاء أن يأوى إليها ويعوذ بها بعد أولمبيا ، وآثر عليها التشرد بصاعقته الخامدة ، وضن بنفسه عليها زيوس وتجافى عنها وإن كان لم يرياً بنفسه عن عزل أبيه وطرد أعمامه وعن الإستهتاك بين الغلمان الذين كان يهبط إلى الأرض على خلقة النسر ليخطفهم ويصعد بهم إلى ملكوته ويكايد بقبلاتهم زوجه ! وكم عذلته فى جنميد وأنبته على مشاربته فى كأس واحدة فكان يقول لها مستتراً لو شربت بعده من هذه الكأس لأقصرت ولم تلمى ! وشاهدى على صحة الرواية « لوسيان ! » :

وما وقفت قط على هذا البحر إلا أحسست أنى مثله ، وإلا هممت أن أنظم هذه الأبيات مرة أخرى :

أناالبحر — لا كرماً ! — إننى ... تكفل بالفقر لى المفضل ؟ !
ولكننى البحر ما إن له ... قرار وما أن له موئل
وتجلده الريح إن زمزمت ... جنوب لها أو زفت شمأل
ويجذب أمواهه كوكب ... ويدفعها وهو لا يحفل
وفى قاعه دره راسب ... ومن دونه الخطر الأهول
وتعتام صفحته ركدة ... وفى سره ثورة تشعل
ويلتمس الشط مستروحاً ... فيهزمه الرمل الجندل
أنا البحر ، لكننى غارق ... بنفسى فمن ذا عمى ينشل ؟
أصارع تياره جاهداً ... وفى أذنى زعده المرسل
وأومى إلى الناس لو أبصروا ... وقد يخطئ العيون من يسأل
فهل عاذر إن ونت همة ... وناء بما يحمل المثقل ؟
وهل شاهد ؟ أن بى حاجة ... إلى شاهد صادق بعدل الخ

وكأنما ضاق صدرى بما أجن وقلبى بما أثار البحر من خليط الذكريات وحرك من الآمال ، فنهضت عن الصخرة التى كنت قاعداً عليها ودهورت هذه الأبيات فى أشداقى وانطلقت أنشد الريح إياها ! ! وعن عسانى أنشد سواها ؟ فى أى إذن غير إذنها أفرغها أو أهمس بها ؟ فى أية نفس إنسانية أجد لنفسى كهفاً يتجاوب بأصداء عواطفى وخوالجى ؟ عند من من الخلق أفوز بالتجاوب الذى تمنحنيه الرياح ؟

أين فى الناس وردتان تميلا ... ن معاً للنسيم من حيث جاء ؟

كما تساءلت قديما ! ثم أهبت بقصائدى التى لم أنظمها — قصائدى الجياد التى لم تند قط عن صدورى وإن كانت تعمره ، ولم ينطلق بها لسانى وإن تكن على طرفه ، والتى لولا مشيئة الأقدار لذهبتها بأصيل هذه الشمس الغاربة ونسجت منها تاجاً لرأسك الذى يتوسد التراب ، ولفصلت من زرقة السماء الحالية بنجوم الليل المتوامضة ، ثوباً متألقاً ينسجم على كتفيك وينسدل إلى قدميك !

* * *

وغابت الشمس وانتشرت على الأرض غيابات الطفل ، فعدت إلى مقعدى أنظر إلى الموج المشرئب ، وجاش صدرى مثله وجعلت طيوف الماضى تبرز من ظلامه وتخطر أمامى ثم تغيب ويلفها ما هو أظلم ، ولكن طيفاً واحداً ظل ماثلا لعينى فى حيثما أدرتها ، ومالئاً شعاب نفسى بالإحساس به ، ومناجياً لى من زفيف الرياح وتهزم الأمواج ، وفيه وفى تمثل الحب المفقود والأمل الضائع ! وخامرنى هذا الخاطر وألح على حتى خلتنى جثة غريق ردها الموج الطاغى إلى رمال الشاطئ ! واج بى هذا الوهم حتى ملت عن الصخرة إلى الرمال ورقدت عليها وأومأت إلى الأمواج أن اركدى فقد ذهب كل شىء : انتسخ الأمل وغاض معين الحب وجفت الحياة !

ثم تناولت عوداً كان ملقى إلى جانبى ، وخططت به كلمات على الرمال البليلة ، غير أن الأمواج طغت عليها وغسلتها وعادت بها ولم تترك لى حتى اسمى الذى رسمته فى آخرها ! فياما أوهى العود وأخون الرمال وأطغى هذه المياه المتحدرة !.

وبأى شىء إذن أكتب ؟ ؟ أأقتطع جذع شجرة بلوط وأغمسه فى بركان وأسطر به ما أريد على صفحة السماء ليبقى ! ؟ !

* * *

ولكم وقفت مل قبل على شاطىء هذا البحر بعينه ، وفى مثل هذا الأوان ، مجيلا عينى فى قبة السماء اللازوردية ، ومرسلا لحاظى فى البحر والرمال والصخور ، وقائلا لذوات المناقير السوداء إذ تعب بها من الماء وتلقط ما يتقاذف منه : « أيتها الأطيار ! أن حياتك مرة مشتوءة كطعامك وشرابك ! ولشد ما أتمنى أن أعطيك مما أعطانيه الله ، وأن أنشقك ما أشمه من الأزاهير والرياحين ، وأطعمك مما آكل من لحم غريض وخضر مستطابة وفاكهة شتى ، وأن أشعرك ما أشعر وأتمتع به من لذاذات الحب المتبادل ! فأن لى شريكة تحبنى ، وانى لأراها الآن بعين الخيال مطلة من النافذة منتظرة أو بنى إلى وكرها ومشتاقة رجعتى إلى عشها » .

وكانت الأطيار تقضى وطرها وتذهب عنى ولا تحفل غبطتى ولا تبالى طعامى ورياحين أنفى وعينى ونفسى ، وما أظنها الآن إلا قائلة لى « يا من كان يفاخر بغيظه ماذا أنت اليوم ؟ ماذا صنع الله بآمالك التى أنشأتها وربيتها واعتززت بها ، وأحلامك التى نسجها قلبك حول حياتك ؟ أنظر الظلمة التى تغشى ذهنك ! وتأمل الخفافيش التى تمرح فيه ! أليس الماء الملح الذى نكرع منه وقذائف البحر التى نلتقطها أهنأ وأرغد ؟ » :

فأطرق وأقول : أى أى والله صدقت ! ولشد ما ما أتمنى أن يكون لى منقارك الأسود !

* * *

كلا ! صحرائى أرفق بى من هذا البحر العاتى الذى لم يتغير منه شىء ، والذى يهيج النفس إلى ما بها . ويعديها ، فتجيش مثلة وتتدفع فيها العواطف وتتلاطم وتنزاخر ، ومن لى بالقدرة على نقل هذه الصحراء التى ألفتها وأحببتها ، معى فى حلى وترحالى ، وفرشها وبسطها حوالى فى حيثما أكون من الأرض ؟ ؟ نعم ليت هذا فى وسع إنسان ! ! إذن لاستطعت أن أطويها

كلما غادرت بقعتها ، وإن الفها مع ثيابى وأشيائى فى حقيبتى ، حتى إذا نزلت مكاناً واستوحشت نفسى أنست بأن أخرجها وانشرها أمامى وأتأملها وأذكر بها ليالى فيها بما اشتملت عليه من خير وشر ، وسرور وحزن ، وغبطة واكتئاب ، ورضى وألم ، ومن أحق بها منى أو بى منها ؟ مالى وللماء الذي لا تطمئن إليه قدم ولا يثبت على حال ولا ينفك ينقلب فيه القديم جديداً . والماضى مقبلا ، والمقبل مدبراً ، ولا يفتأ بعضه يفنى فى بعض ؟؟ ولعل السبب فى حبها وإيثارها إن بى مشابه منها ! وأنى أجتلى فى انبساط رقعتها وترامى أطرافها وتقاذف أرجائها وجدبها وعريها وتجردها من كل زينة تحفل بها رقع الأرض الأخرى ، صورة من نفسى التى تبسط للحياة ولا تزيد الحياة بها ، وللدنيا لتحسب عليها ومنها ، ولا تزيد الدنيا بها عماراً ، وعسى أن يكون كلفى بها لذكرياتى ومعاهدى فيها ، وعلى أنه أى داع يستوجب أن أعلل هذه « العاطفة » التي انطوى عليها للصحراء ؟ ؟

ولما كنت مع الأسف لا أستطيع أن أنقلها معى إلى حيث أذهب فإنى اكر إليها راجعاً على جناح الخيال ! وأراها بضمير الفؤاد كلما خفيت عن عينى . وإنى الآن لأتلفت من البحر إليها وأنقل عينى في جنباتها واسرح طرفى فى أرجائها ، وحسبك من قوة شعورى بها ، ومن فرط استيلائها على خاطرى واستبدادها بنفسى ، انى نظمت هذه الأبيات فى بقعة منها فيها آثار بلدة الفسطاط ، أناجى بها ليلة سهرتها بها وعهداً كان لى فيها :

أيا بلدة الفسطاط ما أنت بلدة
ولكنها طيف لمؤتنف الخفض

طواك قضاء الله في الأرض حقبة
وانشرك الإنسان نقضاً إلى نقض

خطوط وأنقاض كما جاهد الفتى
ليحيي ذكرى وهى تمعن فى الغمض

خرائب من حولى وفي النفس مثلها
وأهول منها ، ويل بعضى من بعض !

وكم خلت نفسى بعض أدراس نؤيها
فأقررت حتى كان يفزعنى نبضى !

قضيت بها ليلا طويلا قصيره
وهل تقتصر الليلات من شدة المخض ؟ ؟

فوا أسفا ! لو ههنا كنت لأنثنى
قصيراً على الليل ذو الطول والعرض

لأوحشنى لما خلت منك رقعتى
ولم تؤنمى ذا وحشة فى حشى الأرض

آآسفة للموت أم أنت يا ترى
أراحك منى الله ذو البسط والقبض ؟

فأنت ترى كيف تغلب طيف الصحراء على البحر المائج ، ولا عجب ! فإن نفسى كما قلت بالصحراء أشبه وإليها أقرب !

نظرة أولى

فى كتاب حديث الأربعاء

كلمة فى الأسلوب أولا . . .

لنا فى الأسلوب رأى قديم يعرفه من يعرفنا ، ذهبنا إليه فى صدر حياتنا ، وثبتنا عليه إلى يومنا هذا ، ولسنا نتخذ من الثبات على رأى مفخرة ، فإنه لا يخفى علينا إن هذا « قد » يكون مراده فى بعض الأحيان إلى الإفلاس العقلى — ان صح هذا التعبير — أو إلى ضعف الخيال ، أو غير ذلك مما أترك للقارىء استقصاءه إذا شاء ، فقد علمتنى الأيام أن أكون أرفق بنفسى من إن أرهقها أو أحمل عليها اكراماً لسواد عيون القراء! ولماذا لا يتكلف القارىء شيئاً من النصب ؟ ؟ ولله ، فاعلم، معشر فقراء العقول، يفرح أحدهم أحدهم أن يكون له رأى ما ، فيضن به ويحرص عليه ، ولسنا من هؤلاء فيما نرجو!

وسنبسط رأينا ونعيده بأوضح مما فعلناه قديماً حين كنا نعتقد أن المسألة أدخل فى باب البديهيات من أن تحتاج إلى إفاضة أو تحتمل اسهاباً ، فنقول أن الغرض الأول من الكتابة على العموم هو الإفهام أو نقل الخاطر من رأس إلى رأس ، والخالجة ، كائنة ما كانت ، من نفس إلى نفس ، ومعلوم أن الألفاظ ليست هى المعانى وإنما هى رموز لها ، تدل عليها وتشير إليها ، كما تفعل ايماءات الخرس التى يتفهمون بها ونظراتهم وحركات وجوههم وأصواتهم القليلة التى يستطيعون إخراجها ، ولو إن اشارات الخرس كثيرة كالألفاظ فى اللغة ، لوفت بكل غرض تعين عليه الألفاظ ولأغنت غناءها ، وغير منكور أن الألفاظ مهما بلغت كثرتها ، محصورة ،

وإن المعانى على خلاف ذلك لا آخر لها ولا نهاية ، ومن هنا كان لامعدى عن العناية بانتقاء أشف الألفاظ عن المراد واحكمها أداء للمقصود ، وإلا كان الكلام لاخير فيه ولاطائل تحته ، وماذا عسى أن تكون قيمة كلام يؤدى الغرض منه ولا يفهم منه قارؤه أو سامعه إلا كما يرى المرء فى الضباب الكثيف ؟ ؟

فالإبهام أو نقل الخالجة على العموم إلى نفس أخرى هو الغرض الأولى من الكتابة على وجه الإجمال ولكن هذه ليست إلا درجة أولى فوقها أخرى يحاول من يسميهم الناس أدباء وشعراء أن يرقوا إليها ، وهى طبقة الكتابة الفنية التى لا يكون المطلوب فيها مجرد الإفهام وإيلاج المعنى أو الخاط ذهن القارئ بل التأثير ، وكما أن الإنسان لم يكتف بالأصوات الكلامية وأبى إلا أن يغنى وأن يرفع عقيرته ، حين يحس الحاجة إلى ذلك أو الرغبة فيه ، بتواليف صوتية تطربه وتشجيه ، وكما أنه لم يسعه أن يقنع من المساكن بما يقيه الشمس والرياح والأمطار والضوارى ، ومن الثياب بما يعينه على احتمال الأجواء المختلفة ويستره ، بعد أن أرهقت الحياة إحساسه ووفقته ، ومن الطعام بما يسد الرمق ويدفع غائلة الجوع ويؤتيه القوة ، ومن المراكب على أنواعها بما فيه والكفاية فحسب ، نقول كما أن الإنسان أبت له طبيعته التى ركبها فيه خالقه إلا أن يجاوز ما تطلبه الضرورة القصوى فى طعامه وشرابه وملبسه ومسكنه وفى كل شىء آخر ، كذلك لم يطق صبرا على الاكتفاء من الكتابة بما تبلغ إليه من الأغراض الأولى ، وطمع فيما هو أكثر من ذلك وبغى ماوراءه فنشأ الأدب .

وليس من الضرورى أن يكون المرء على جانب عظيم من الثقافة والتهذيب ليطلب الفن فى حياته ، فإن الإنسان حيوان فنى ، وإنك لتجد الرجل الأمى الكثيف للعقل « السميك » الوجه يضفر شعر حماره ويفرقه يرسله على صفحتى عنقه ويفضض له لجامه ويذهب سرجه ويركبه مترفقاً

ويمشى به مختالا وينزل عنه ويسايره وينظر إليه باديأ من بعيد ومن قريب ويربته ويلاطفه ويمسح له وجهه وقد تفيض نفسه سرورا بمنظره فيقبله ! ؟ ولو أنه كان لايتخذه إلا مركبا يريحه من عناء السير وجهده ، لما كلف نفسه أن يحليه ولما عنى بتجميل أدواته من سرج ولجام وغير ذلك ، وبراحته جهد طاقته ، وبعلفه ما وسعه الإنفاق ، فهى عاطفة فنية ملكت عليه قلبه واستولت على لبه ، وكان مظهرها العناية بتجميل أتانه !

ولكن الحمير ، والحمد لله ، ليست كل ما يمكن أن يكون مظهرا لهذه العاطفة الفنية ! وما يستطاع فى عالم الحمير وأشباهها من أبناء أبينا الشيخ آدم رحمة الله عليه وغفرانه له يستطاع مثله فى عوالم الكتابة والشعر والموسيقى والتصوير ، وما منا إلا من يبغى أن يكون فنه أفعل باللب وأسحر للقلب وأملأ للعين وأوقع فى النفس ، ولكن الكتابة لا تكون فنية من تلقاء نفسها ، وإنما تصير كذلك بما يحدثه المرء فيها من الصور ، وما يوفق إليه من الإحسان والتجويد ، ولابد لذلك فيما نظن ! من صحة النظر وسلامة الذوق وصدق السريرة والاستعداد . فإن الألفاظ موجودة ، وهى ملقاه فى طريقنا جميعا وعلى طرف كل قلم ولسان ولو أن العبرة كنت بالألفاظ وحدها. وكان المعول على مقدار محصول المرء منها لكان أكبر الأدباء هم جماعة اللغويين والحفاظ ولكان ابن منظور والفيروزبادى مثلا شيخى أدباءالعرب وشعرائهم ، كذلك الموسيقى أصوات ، وليس يعنى أحداً أن يتوفر عليها ويحذقها ويمهر فى توقيعها ، وقد لايعجزه أن يصنع بضعة ألحان قليلة أو كثيرة ، ولكن ليس كل أحد بمستطيع أن يكون بيتهوفن أو فاجنر أو شوبان ، والتصوير أيضا أصباغ وألوان ، أو قل — إن شئت — إن هذه هى مادته ووسائطه ، ولكن العلم بها وبأصول الرسم وقواعدة ليس حسب المرء ليكون مصورا حتى من الأوساط فضلا عن الفحول من أمثال روفائيل وتيتيان ، وما لنا لا نسوق الأمثال مما هو ألصق بحاتنا اليومية ؟ خذ صناعة النجارة مثلا وقل لى لماذا لايستطيع كل نجار أن يكون ككل نجار ؟ ما السر فى أن واحدا يخرج قطعة

تدخل السرور على كل نفس وتحب أن تتعلق بها وتتمهل عندها كل عين ، على حين يخرج لك غيره ممن لا يقلون عنه علماً بالصناعة ودربة عليها مالا يروق ولا يعجب ولا يعدو أن يكون قطعة منجورة وأخشاباً بعضها إلى بعض والسلام ؟ نريد أن نقول أن فن الكتابة ، ككل فن ، يتطلب استعداداً طبيعياً وأنه — ككل فن أيضاً — لا غنى عن الجمال فيه ، وماذا يكون قولك فى رجل يزعم أن سيغنيك ثم لا يسمعك إلا أصواتاً متنافرة أو ضوضاء منكرة ؟ أو في آخر يقول لك هذه صورة فنية فإذا نظرت إليها لم تلمح فيها مايميزها عن النقل الفوتوغرافي ؟ وكالنقل الفوتوغرافي الكتابة العادية التي لا يقصد منها إلا إلى الإفهام ، وكالتصوير الفنى لغة الأدب .

ولا يفهم أحد من كلامنا أننا نقصد إلى التكلف وإثقال الكلام بالحلى والزينة ، فما يخطر لنا شيء من ذلك ، وإنما نعنى أن الأدب فن ، وأنه لابد في كل فن من الإحسان والتجويد ، ولكل امريء طريقة هو لمؤثرها أو موفق إليها لابراز المعنى فى أحسن معرض ، وليست المزية فى التأنق والتحبير فإن للجمال العاطل أيضاً موقعاً حسناً وروعة ونضرة بل المزية في إبراز المعانى فى أحسن حلاها كيفما كانت ، وكل ميسر لما خلق له ، فواحد يوشي الكلام ويطرزه ، وثان يرسله غفلا ، وثالث يدق لفظه ويشف حتى لتتخطاه العين كأنما يعرض لك المعاني فى ظروف من النور ، ورابع يفرغ خواطره فى قوالب ملئت قوة وجمالا وهكذا . والإحسان فى كل ذلك والقدرة عليه ، ملكة لاتحصل بالمعاناة ولا تتهيأ بالدرس والتحصيل وأن كان هذا مما يقويها وينميها . ولا نطيل القول . فأما رجل زعم نفسه كاتباً أديباً وخلا كلامه من عناصر الجمال فقل له لست به .

والآن ، ما رأينا فى أسلوب صديقنا الدكتور طه حسين ؟ ! الحق أن هذا الموضوع يدق فيه الكلام ! ولقد بدأت الكلام وفى عزمي أن أفيض فى بيان رأيي فى الأسلوب ولكني لم أكد أسود بضعة سطور حتى

ألفيت نفسى أوجز وأوجز وأوصد كل باب موارب فى طريقى وأضيق دائرة البحث ثم إذا بى أسأل نفسى ما رأيى فى أسلوب الدكتور ! ؟ ولقد تقمصنى والله عفريت النقد ! وإنى لأحس أن عينى قد احمرتا ، ويبلغ من إحساسى بذلك أو توهمى إياه إنى أهم بالتطلع إلى وجهى فى المرآة ! ولا أكتم القراء إنى صرت اؤمن بأن لكل منا شيطاناً ، وأحسب شيطانى من أخبث الشياطين ، فإنه يزج بى فى مآزق لا أرضاها لنفسى لو كان الأمر لى ، وإن على مكتبى لأكثر من خمسة عشر كتاباً أستطيع أن أتناولها بما شئت من النقد وأنا آمن أن ألقى أصحابها إذ كنت لا أعرفهم ، ولكن شيطانى الخبيث ظل يخايلنى بكتاب الدكتور حتى أخرجته من بين أخواته وقلت له ، « تعال يا هذا » وأخذت أقلب صفحاته كما يفعل المرء بالخروف يريد أن يشتريه لعيد الأضحى ؟ ! والحق أقول إنه أعجبنى ! وأنا ألقى الدكتور كل يوم وأحادثه أكثر مما أحادث نفسى ، ولكم قلت لنفسى وهو لايدرى « لا ياشيخ ! دع كتاب الدكتور إلى سواه ، فإن للزمالة حقاً واجب الرعاية وستخجل أن تلقاه بوجهك هذا إن نقدته » ثم لا أكاد أخلو بنفسى حتى يهمس فى إذنى ذلك العفريت اللعين : إن الأدب فوق الصداقة والزمالة ، وإن بروتوس كان يقول « إنى أحب قيصر ولكن رومية أحب إلى » وإن لك كتاباً كما له كتاب فلينقده إذا أحب ، وليس من شأن النقد الأدبى أن يفسد ما بين الصديقين . وهكذا حتى اقتنعت وتناولت القلم فكتب به الشيطان ما يأتى :

« الدكتور طه حسين رجل أنيس المحضر ذكى الفؤاد جرىء القلب ، تعجبك منه صراحته وتقع من نفسك رجولته وأنفته ، ويعلق بقلبك إخلاصه ووفاؤه ، ويثقل عليك أحياناً اعتداده بنفسه ! ولما كان قد ألف أن يملى كتبه ورسائله ومقالاته ، فإن كتبه وحديثه ، حين يجد ، فى مستوى واحد ، كائنا ماكان ذلك المستوى ، فلست تفتقد فى أحاديثه ما تجده

فى كتابته من الخصائص والشيات ، ويندر فى غيره مثل ذلك ، ومن شأن الإملاء أن يحول دون مط الكلام وأن يجعل الجمل قصيرة فلا تطول مسافة بين ما بين أولها وآخرها ، وإن يغرى بالتكرير والإعادة إلى حد ما ، كما هو الشأن فى الخطابة ، ومن هنا كان أسلوب الدكتور طه خطابياً ، أو قل إن الصبغة الخطابية فيه أغلب من الصبغة الكتابية ، وخصائص تلك ومميزاتها أوضح ، فهو فى الأغلب والأعم يوجه الخطاب إلى القارىء كما تفعل حين تحادث جليساً لك ، ويقصر جمله ويؤكد عباراته بالتكرير والإعادة ويلتمس التأثير من طريق ذلك ، حتى وأنت تقرأ كلامه كأنما كان يهز قبضة يده حين بلغ هذه العبارة ، ويومىء بأصبعه لما وصل إلى تلك إلى آخر ذلك .

« والخطابة فن مختلف جداً عن فن الكتابة ، وأحسب إنه لو كان الدكتور قد ألقى هذه الرسائل ولم يكتبها ، لما جاءت إلا كما هى الآن ، ومن شاء أن يكون منصفاً وأن يوفى كتابة الدكتور حقها ولا يعدو بها مكانها فلينظر إليها بهذه العين وليزنها بما توزن به الخطابة لا بما تقدر به الكتابة .

« إذن أنا أخرجها من عالم الكتابة ؟ نعم ؟ ولا أراها إلا خطباً مدونة. ولست أريد أن أقف حتى هنا ، بل أزيد على ذلك وأضيف إليه أنها خلت من مزايا الفنين جميعاً . ! فأما مزايا الكتابة فقد عطلت منها لأن صاحبها يمليها إملاء ثم لا يعود إليها بتنقيح أو تهذيب ، ولو أنه كان يتعهدها بعد أن يمليها بشىء من الإصلاح لخلت على الأرجح من أكثر ما فيها من التكرير ولعولج بعض ما يعتورها من العيوب ، ولكنه لا يفعل ، وقد صدق فى قوله « إنى ما كتبت فصلا إلا وأنا أعلم أنه شديد النقص محتاج إلى استئناف العناية به والنظر فيه ، وأنا أقدر أن سيتاح لى من الوقت وفراغ البال ما يمكننى من استئناف تلك العناية وهذا النظر حتى إذا فرغت

منه ونشرته السياسة عرضت لغيره فى مثل هذه الحال العقلية التى عرضت له فيها معتزماً أن أستأنف العناية به والنظر فيه مستحيياً أن أقدمه إلى الناس على ما فيه من نقص وحاجة إلى الإصلاح ، والأيام تمضى والظروف تتعاقب ، مختلفة متباينة أشد الاختلاف وأعظم التباين ، ولكنها كانت تحول دائماً بينى وبين ماكنت أريد من تجديد العناية واستئناف النظر ، وأى الكتاب وأى الباحثين لايشكو مثلى هذا فى مثل هذه الأيام التى نعيش فيها ؟ » .

وأما خلوها من مزايا الخطابة فلأنه لا يمليها على أنها خطب تلقى بل على أنها مقالات وفصول تقرأ ، وإن كانت طبيعة اعتياد الإملاء تجعلها أقرب إلى الخطب منها إلى الرسائل . ومتى كان هذا هكذا فأى غرابة إذا قلنا إنها خالية مما لم يتحره فيها : أى من خصائص الخطب ومزاياها ؟ وكما أن الخطب تفقد كثيراً من قوتها وتأثيرها فى نفوس الناس حين يقرأونها ، كذلك مقالات الدكتور من عيوبها أن الناس يقرأونها ولا يسمعونه يلقيها ؟

« ولا شك أن أظهر عيب فى مقالات الدكتور هو التكرار والحشو وما هو منهما بسبيل ، وعندنا أن علة ذلك ليست فقط إنه يملى ولا يراجع ما يملى بل الأمر يرجع فى اعتقادنا إلى سببين جوهريين أولهما أن ما أصيب به فى حياته من فقد بصره كان له تأثير لانستطيع أن نقدر كل مداه ، فى الأسلوب الذى يتناول به موضوعاته ، وفى طريقة العبارة عن معانيه وأغراضه ، ولسنا نتحرج أن نذكر ذلك ، فإنه أعرف بنا من أن يشك عطفنا » بل نحن أعلى به عيناً وأسمى تقديراً من أن نعتقد أن به حاجة إلى هذا العطف ، وليس يخفى أن المرء إذا حيل بينه وبين المرئيات ضعف أثرها فى نفسه ، ولم تعد الكلمة الواحدة تغنى فى إحضار الصورة

المقصودة إلى ذهنه بالسرعة والقوة الكافيتين ، فلا يسعه فيا نعتقد إلا الإسهاب ومحاولة الإحاطة ومعالجة الاستقصاء والتصفية .

« وثانى هذين السببين أنه أستاذ مدرس وقد طال عهده بذلك ، والتعليم مهنة تعود المشتغل بها التبسط فى الإيضاح والأطناب فى الشرح ، والتكرير أيضاً ، بل تفعل ما هو شر من ذلك : وأعنى أنها تدفع المرء عن الأغوار والأعماق إلى السطوح . وبعباره أجلى تضطر المدرس أن يجتنب التعمق والغوص ، وأن يكتفى – ما وسعه الاكتفاء – بما لا عسر فى فهمه ولا عناء فى تلقيه . وتلك آفة التدريس ولولا أنى أعرف كلفه به وإقباله عليه وهشه له ، لدعوت له الله أن يريحه منه كما أراحنى » .

قال المازنى : وهنـــا صرف الله عنى السوء واذهب عنى الشيطان فوضعت القلم وأنا أحمد الله أن لم يستكتبنى الا هذا التحليل البرىء .

آراء شتى

فى كتاب « حديث الأربعاء »

مما يحببنى فى الصحراء أن لى فيها سميرين: أحدهما رجل ساذج لايزال على الفطرة على الرغم مما يحمل من عبء السنين على كتفيه ، ومن ثقل لحيته الكثة على خديه ! وخير ما فيه أنه يسمح لى أن أمشط له شعراتها الطويلة وأفتلها ، بقرش يأخذه ؟ ! وناهيك به من منظر ليس أروح منه للصدر : منظر وجه حوله مثل الاطار من هذا الشعر المفتول ، وفوقه عمامة خضراء ضخمة تهوى إلى الحاجبين وتخفى حتي الأذنين ! ولصاحبنا هذا رأى طريف في صديقنا الدكتور طه حسين ! فهو عنده من أولياء الله الصالحين ! ولكتابه فى نفسه روعة وحرمة ، إذا رآه انبسطت أسارير وجهه والتمعت عيناه ثم مد إليه كلتا يديه ، كالمتسول حين تدفع إليه صحناً فيه طعام ! وتناوله مبسملا محركا شفتيه بما شاء الله ، وسبحان الوهاب وأمسكه مقلوباً ! فإن صاحبنا بفضل لله أمى ؟ ؟ وأخذ ينظر إليه وينغض رأسه المثقل بالعمامة ويبسبس بشفتيه إعجاباً ، وسر ذلك كله أنه يعتقد — على ما فهم مني ! — إن الدكتور لا يكلم الناس إلا يوم الأربعاء ! ! وأنه يتناول في كتابه سيرة وإلبة بن الحباب رضى الله عنه ! وحماد عجرد قدس الله سره ! ! وأبي نواس القطب الأعظم ! وقد توسل إلى مرة أن أقرأ له شيئاً من فيض الدكتور فتعمدت أن أنشده للنواسى هذه الأبيات :

مالى وللعاذلات زوقن لى ترهات
سعين من كل فج يلمن في مولاتي
يأمرننى أن أخلى من راحتي حياتى

وذاك مالا ولالا يكون حتى الممات
والله منزل طه والطور والذاريات
الر وصاد وقاف والحشر والمرسلات
ورب هود ونون والنور والنازعات

ثم امسكت لأن الرجل كان قد سرى فى مفاصله كحميا الخمر فجعل يدق ركبتيه بكفيه ، ويهز رأسه في كل ناحية هزاً عنيفاً أشفقت عليه منه وخفت أن ينكسر عنقه . ومنذ ذلك الحين صار النواسى قطباً والدكتور ولياً نفعنا الله بهما . آمين ! وبلغ من اكباره لصديقنا وحسن اعتقاده فيه أن سألنى أن أشفع له عنده ليعطيه عهداً ! وها أنذا اؤدي الرسالة ! فهل بلغت ؟ اللهم أشهد !

وثاني السميرين الانيسين سحلية . نعم سحلية ! وأي غرابة فى ذلك ؟ ألا يتخذ الناس الكلاب ويصطحبونها فى غدواتهم وروحاتهم ؟ ألم يكن آباؤنا المصريون القدماء يعبدون حتي القطط ؟ والسحالى كثيرة في صحرائي هذه . ويظهر أنها أحست منى الحب لها والشوق إلى الاتصال بها فما خرجت إلى الصحراء مرة أو جلست على باب البيت إلا برزت لى السحالى من الشقوق وراحت تدور حولى مطمئنة غير وجلة ، وتخطر أمامى وترفع لى ذيلها بالتحية ؟ وبعضها مخطط الجلد منقوش الذيل على نحو ما تري على آثار آبائنا الفرعنة . وما يدرينا ويدريك ؟ لعل ههنا هيكلا قديماً مدفوناً ولعل هذه السحالى كهنة مسحورون ! فإن صح هذا فقد تكون على هذه الذيول القصيرة أسرار عويصة منقوشة لو ظفر بحلها واحد من أمثال « بوستيد » لحلالنا من أنباء القرون الخالية وحقائق الطبيعة الماكرة ما ينقب عليه أمثاله عبثاً في فدافد الصعيد !

ولا بد لحبها والفتها اياى واطمئنانها إلى من سر ، وأحسبه أنها لمحت في مشابه منها ! أو كأني بها تعتقد أني كنت سأخلق على صورتها ثم عدل

بى خالقي ، جلت حكمته ، إلى ما هو أدنى وأهون . أعنى صورة الاناسى !
فإن كان هذا هكذا فلعله السبب فى أن عينى تقع على الشقوق بسرعة ، وانى كلما أمسكت عصاً ألفيتنى أعالج أن أغرسها فى الأرض أو أن أحفر بها في جوفها ، ولكم فكرت في هذا فتمنيت أن يتيح الله لنا عالماً ذكياً لبقاً يثبت تناسخ الأرواح ! إذن لكان هذا أبسط حل لهذه المعضلة !

وأنا ألاحظها وأجعلها قيد عينى كلما ذهبت تنساب على الرمال أمامى ولقد خيل لى يوما ، وأنا أرامق واحدة منها ، أنها أطرقت قليلا ثم رفعت رأسها الدقيق وحملقت فى وجهي بعينين خلتهما عينى كاهن مسحور ،وقالت لى بصوت أجش يفيض عطفاً ومرثية « مساكين أبناء آدم ! ما أشد جهلكم وأقل استغناءكم عن الكتب أو ليس هذا الذى بيمينك كتاباً ؟ » قلت « نعم غير إنى لا أقرأه لاتعلم منه بل لأنقده » فابتسمت كالساخرة وقالت «وما أشد غروركم أيضاً ! » ثم أمالت رأسها وأغمضت إحدى عينها وسألتني بلهجة مبطنة بالزراية « وأى كتاب تقرأ ؟ حدثنى » فقلت « هذا كتاب وضعه من يدعي الدكتور طه حسين في بعض من كانوا يدعون أبا نواس وبشاراً والحسين بن الضحاك وكلهم ، فيا أرى من هيئتك ، مغمور خامل الذكر لم ينتشر به الصوت إلى عالمك ! » فدارت حول نفسها من فرط الضجر دورتين أو ثلاثاً ثم لفت ذيلها حتى أدنته من رأسها ولبثت هنيهة تتأمل نقوشه الخفية السر ، ثم التفتت إلى وقالت « وما دكتورك هذا ؟ » قلت « استاذ فى الجامعة يدرس الأدب والتاريخ أو كليهما أو لا أدرى ماذا ؟ » فبدأ عليها الاهتمام وتركت ذيلها يعود فيمتد خلفها على مهل ، وقالت « أدب ؟؟ وماذا كانت تخسر الدنيا لو لم يظهر فيها أدباؤكم هؤلاء ؟ بل لو لم تخلقوا فيها يا أبناء آدم ؟ أكانت تكف الأرض عن الدوران ؟ أم كانت تستوحش خلوها منكم رائحين غادين فوق ظهرها ومن جثثكم المرمة في جوفها؟ ودكتورك هذا الذى يدرس في الجامعة هل يستمع إليه أحد» فقهقهت فغيظت وابتدرتنى بهذا التعنيف « ماذا يضحكك يا هذا ؟ » فقلت « معذرة

سيدتى إن كنت أسأت الأدب ! نعم يذهب إليه الظاء إلى المعرفة ليكرعوا من معين علمه وأدبه . ولا نكران أنه ليس سوى إنسان ، لا سحلية ، ولكنه يعرف بعض الشيء .» فقاطعتني بقولها « أجبني ماذا تخسر الدنيا أو تخسرون انتم لو فقد تم هذا الكتاب بل ما عندكم من الكتب ؟ فحز في نفسي هذا التحقير الذى تلج فيه ونهضت عن كرسى وقلت « إنى أحتج يا سيدتى على هذه اللهجة واؤكد لك » .

* * *

« أتكلم نفسك ؟ »

فالتفت مذعوراً إلى مصدر الصوت فإذا قريب لى ينظر إلى قلقاً وقد زوى ما بين عينيه ! فعدت إلى كرسى وعالجت نفسى حتى ثابت إلى ثم شرعت أطمئنه ولكن هيهات . !!

* * *

وقد كففت بعد ذلك عن محادثة السحالى العالمة واعتضت منها محادثة القراء . . . . ! ! غير أن أذنى ما انفكت تطن بقولها « ماذا تخسر الدنيا أو تخسرون انتم لو فقدتم هذا الكتاب بل كل ما عندكم من الكتب ؟ » وإنى لاردد سؤلها هذا الآن وأعيده على سمعى ويؤلمنى ويكوى غروري الجنسى وكبريائى النوعى أن يكون الجواب سلباً قاطعاً ونفياً جازماً ، أى لا شيء ! فأما الدنيا فلا تخسر شيئاً على التحقيق . وأما الناس فهم كأجهل ما كانوا أو كأكمل ما يمكن أن يكونوا علماً ، فما أرى هذا يقدم أو ذاك يؤخر . أليس الفناء الشامل هو المآل على كل حال ؟ أجيال تمضى وأخرى تأتى ، كالخيالات التى تتراءى للحالم ، حتى إذا استيقظ المرء اختفت ! كذلك الطبيعة تحلم بنا الآن ثم فى الصباح تخلو رأسها من أشباحنا ! ! ولعن الله السحالى فقد سودت بسؤالها عيشى حتى لقد صرت كما أقول :

أرى رونق الحسناء في ميعة الصبا فيوضع بي شؤم الخيال ويعنق
ويشهدنيها في التراب مرمة وقد غالها غول الحمام الموفق !

* * *

ونطبق سؤال السحلية على كتاب الدكتور ونسأل نحن بدورنا :

هل فيه من جديد ؟ هل زادت معارفنا به قليلا أو كثيرا ؟ أكنا نكون أجهل مما نحن الآن لو لم يكتبه ! وأذكر أن الأدب العربي ليس إلا بعض الأدب العالمي ، وان الدكتور لم يتناول في كتابه سوي جانب واحد من فترة من عصر من عصور الأدب العربي . والجواب على هذه الأسئلة التي أوحت بها إلى السحلية اللعينة ، نعم ولا . واعني بذلك ان الدكتور لم يزدنا علماً بالعصر العباسي ولم يضف إلى ما نعرفه عنه جديداً ، فلو لم يكتب هذه المقالات لما فاتنا شيء يذكر من هذه الناحية . ولكن هذه المقالات كشفت عن جانب من جوانب نفسه هو ، لم يكن يتأتى لنا العلم به والاطلاع عليه لو فقدنا هذه المقالات . وهذا هو الذى ربحناه . والواقع اننا جميعاً نترجم لنفوسنا ونحدث الناس عنها ونكشف لهم عن دخائلها حين نكتب مؤرخين أو مترجمين أو متفلسفين أو ناقدين أو غير ذلك . وأحسبني لم اعد الحقيقة حين قلت — والشاهد في البيت الخامس :

يمل الفتى طول الحياة ولا يرى
على الموت إلا ساخطاً جد واجد
ويطلب ، امامات ، أن ينصبوا له
معالم تستجدى دموع الخراند
وتبدى جراحات الردى وكلومه
وتستمنح الأحياء ذكر البوائد

وينسج برد الشعر مسهر جفنه
ليسبي حريم الذكر حر القصائد
بلى ، ذاك دأب الناس ، كل بنفسه
يعرفنا ، من صادر بعد وارد
ويدنهم حتى تجف حياتنا
وتخلع ديباج الربيع المعاود
ويسكن نبض الارض مثل قطينها
وتعلق أسباب الردى بالفراقد !

ولا يحسب أحد ان من الخسارة أن يعرفنا المرء بنفسه ولا يعرفنا بسواه . كلا ! فهذا مكسب كبير وربح طائل .

الاساليب والتقليد

بسم الله أبتديء وعليه أتوكل ! فما بقيت مندوحة عن تقلد السلاح وملاقاة دكتورنا فى الحلبة التى اختارها لنفسه وآثرها على سواها . وعزيز على أن أنازله وأقارعه ، فإنى أنطوي له — أو صرت على الأصح أنطوى له — على الحب والاحترام . وليتنى ما عرفته ولا خالطته ! إذن لبقيت بدى حرة ترتفع حين تشاء وتهوي بكل قوتها على رأس كتابه فتهشمه ، أو لاتضيره وتوهى عظامها ، على قدر ما فيه من مناعة وقدرة على المقاومة ، دون أن أجعل بالى إلى صاحب الكتاب أو يبرز لى وجهه من كل صفحة فيه ، كأنما ظهر كتابه فى الدنيا بفعل الهواء وبتأثير الجو كما ينبت العشب من تلقاء نفسه على الصخور ، أما الآن فوا أسفاه ! ألف الدكتور كتاباً ودفعه إلى الناس وقال لهم فى تواضع كله كبر : هذا ما رضيته لكم ! وما هو بسفر أو كتاب « كما أتصور السفر والكتاب » وإنما هي مباحث متفرقة « لست تجد فيها هذه الفكرة القوية الواضحة المتحدة التى يعبر عنها المؤلفون حين يؤلفون كتبهم » ، وبالغ فى هذا الضرب من التواضع المقلوب ، فأعلن إلى الناس أنه لم يعن بهذه المباحث « العناية التى تليق بكتاب يعده صاحبه ليكون كتاباً حقاً » وإنه يعلم « أنه شديد النقص محتاج إلى استئناف العناية والنظر » كأنما أراد أن يقول : لستم أهلا للعناية وأن في وسعى أن أؤلف خيراً من هذا الكتاب ولكن لمن ؟ ألقراء الصحف السيارة — وهم فلا تنس ! — جمهور القراء فى مصر ؟ كلا ياسيدى : « لم يكن بد من أن يتجنب (الدكتور) التعمق فى البحث والإلحاح فى التحقيق العلمى إذ كانت

الصحف السيارة لا تصلح لمثل هذا » ! ولكم وددت أنا ـ أنا المازنى ـ حين قرأت هذه المقدمة التى صدر بها الدكتور كتابه ، وقيل أن يصل خائك الأقدار ما بين أسبابى وأسبابه ، أن أعلمه احترام القراء ! ولكنى خالطته فأحببته مع الأسف ! وإنى لأتمرد أحياناً على هذه العلاقة التى توثقت عراها بيننا ويتقمصنى عفريت النقد الذى لا يحابى الأصدقاء ولا يجامل الأوداء ، فارفع بالفأس كلتا يدى واشب عن الأرض ، وأهم بالضربة تفلق اليافوخ فيطالعنى وجهه الساكن وجبينه المشرق ، وهو جالس إلى يحادثنى ويقاسمنى ما أعانيه من المضض ويحمل عنى شر شطريه فتهى قبضتي وتفلت الفأس ، وتهوى ذراعاى إلى جانبي وتتملكنى عاطفة فنية تجعلنى أقول « خسارة ! نعم من الخسارة أن أحطم هذا الرأس ! فإن فى الجبين لالتماعاً وفى العظام قوة ، وفى التركيب متانة ـ وأولى بذلك كله ريشة المصور لا فأس التحطيم ومعول الهدم ! وليتنى كنت مصوراً ! إذن لأنطقت هذا الوجه بما عجز عنه قلم صاحبه ؟ » وهكذا كلما نويت للدكتور نقداً أراني أمسح له جبينه وألاطفه وأربته ! وإنى لأنقم من نفسى هذا ولكن ما حيلتى ؟ لست أرى لى خياراً : هذه هى الأسلحة ملقاة أمامى . تتخطى يدى من بينها كل درع مسردة تتكسر عليها النصال ولا نلتقى إلا درعاً من الكتان لا تقى ولا تغنى ! وتدع ما المعاول والفؤوس والقواضب والسوط وتتناول ما هو بخيط الحرير أشبه لا بأس ! ولنبرز له عزلا من كل سلاح !

وما أظن بالقارىء إلا أنه يقول وهو يتلو هذه السطور . وهل أنت أشد احتراماً لقرائك من الدكتور ! ألم تصدر « حصاد هشيمك » بكلمة قال كل من قرأها أنها زراية على القراء وتضاحك بهم ؟ وجوابى كلا بالخط الثلث ! وبراءة إلى الله من هذا الوهم الذى ركب بعض الناس ! وهل من الزراية والتهكم أن أقول إن هذا أقصى ما وسعه جهدي فإن

رضى عنه القراء فبها ولله الحمد وإلا فما لايصلح كتاباً قد يصلح وقوداً ؟ وفرق ولا شك بين أن أصارح القراء بأن هذا كل ما فى الطوق وبين أن أزعمنى قادراً على خير منه ! فأنا كما ترى أصدق تواضعاً من الدكتور : هو يستخف بقرائه ولا يراهم أهلا لأن يتكلف من أجلهم « التعمق فى البحث والإلحاح فى التحقيق العلمي» وينشر لهم كتاباً « شديد النقص محتاجاً إلى استئناف العناية والنظر » وأنا على خلافه أقدر فى هؤلاء القراء الذكاء والفطنة فأسبقهم إلى الحكم على كتابي على حد قول القائل بيدى لا بيد عمرو !

***

ولم يكذب الدكتور حين قال في هذه المقدمة « ولقد يكون من الحق على لنفسى وللأدب ولقراء هذه الفصول أن أعترف بأنى ماكتبت منه (كذا) فصلا إلا وأنا أعلم أنه شديد النقص « محتاج » إلى استئناف العناية به والنظر فيه » والدكتور رجل صادق صريح وقد اعترف فوق ذلك بأن الأيام كانت تحول دائماً بينه وبين ما كان يريد « من تجديد العناية واستئناف النظر « وقد أحسنت الأيام بما حالت دون مرامه ، ولو أنها أتاحت له أن ينقح ما يكتب ويتعقبه بالإصلاح ، لما تركت لنا معاشر النقاد من عمل نبيض به وجوهنا ونسوغ به طول ألسنتنا . فهل يسمح لنا صديقنا أن ننوب نحن عنه فى تجديد العناية واستئناف النظر ؟ ويسوءنا أننا لا نحب أن نحاكى أسلوبه ونضرب على قالبه فى إرسال الكلام . وليس ذلك لأن أسلوبه الكتابي شاق يتعذر تقليده ، بل لأن لنا أسلوبنا الخاص ومن فضل الله علينا أن ليس لنا فيه مقلدون !

ولقد سمعت الدكتور مرة يقول ، وقد عرض ذكر أسلوبه ، ما معناه أنه لا يطمع من الشهرة فى أكثر مما وفق إليه من كثرة المقلدين الذين يقتاسون به ويحتذون مثاله فى طريقة الآداء وفى تأليف الكلام ، وعندى

أن الأساليب التى يسهل محاكاتها هى أحلى الأساليب من المياسم الشخصية والميزات الخاصة التى يختلف بها كاتب عن كاتب ، أو بعبارة أخرى هى التى لا تنطبع عليها صورة بارزة مؤكدة من شخصية أصحابها . وتقريباً لذلك من أذهان القراء نقول لهم إن المتنبى مثلا ينطق شعره باسمه وينسب نفسه له ، دون أن يحتاج القارىء أو السامع — إذا كان قد حصل شيئاً من الأدب — إلى النص على أن هذا البيت أو الأبيات للمتنبى . وما من مطلع على الآداب الغربية يعيبه أن يفطن إلى أسلوب كارليل الانجليزى مثلا ولو سيق غفلا من كل نسبة .

والآن فلنسأل : من الذى استطاع أن يقلد المتنبى أو كارلبل ؟

أجمع أدباء الدنيا وشعراؤها قاطبة وكلفهم أن ينظموا لك قصيدة على غرار المتنبى أو يكتبوا فصلا على مثال كارليل يعجزوا جميعاً ويبوءوا بالفشل ! ذلك لأن الأسلوب صورة من النفس ، ولكل ذهن التفاتاته الخاصة وطريقته فى تناول المسائل وعرضها، وكلما كانت هذه الخصوصيات أوكد وأعمق ، كانت المحاكاة أشق والاخفاق فيها أقرب . فهى لا تسهل إلا حيث يكون الأسلوب خالياً من الخصائص التى ترجع فى مرد أمرها إلى النفس وماركبت عليه وانفردت به .

وإليك مثالا من عالم الموسيقى : ونعنى به هذه الأغانى الشائعة على الألسن والتى يسمونها « الطقاطيق » : يوقعها الرجال والنساء والغلمان والأطفال على السواء توقيعاً مضبوطاً ، ولا يكادون يتفاوتون إلا من حيث حلاوة الصوت وصلاحه للغناء . ومعلوم أن الذين وضعوا هذه الألحان وصنعوا فيها هذه الأصوات ، هم من رجال الفن ، ولكن الناس يصنعون أصواتاً مثلها فى كلام غير كلامها ، أى يقلدونها ولا يجدون فى ذلك عسراً، أما الأدوار الكبرى والقطع التى هى أدخل فى باب الفن من الطقاطيق ،

والتي يشتهر بها واضعوها ولا تذكر فى الأغلب والأعم ، إلا مقرونة — على الأقل فى الذهن — بأسماء أصحابها ، نقول أما هذه فما أقل مقلديها بل حفاظها ! وأنت قد تستطيع أن تصنع بركة أو بحيرة تشرع فيها على الزوارق وتأتى إليها بشتى الأسماك ، وتجعل لحوافيها صخوراً ، وتنثر على سيفها الحصى ، وتفرش الأرض على مستدارها بالرمال ، ولكن أيدخل فى مقدورك أن تحفر لنفسك فيما شئت من أرض الله الفضاء بحراً أعظم طامى الموج ، متدافع الأواذى ، مختلف التيارات ، يتعاقب عليه المد والجزر بتأثير القمر الذى فى السماء ! ؟

فليس من دواعى الفخر أن يكثر مقلدوك وأن يكونوا موفقين فى الحكاية . ولعمرى ماذا يبقى من المرء إذا كان يكتب على أسلوب إذا رأيت تقليده حسبته ألا يكون الإنسان فى هذه الحالة عبارة عن صورة طبق الأصل من سواه ؟ ومعنى ذلك أنه يكون إنساناً عادياً من الأوساط ، أمثاله كثيرون إذ كان لا ينفرد بشىء يرتفع به عن مستواهم .

ومن حسن حظ الدكتور أن له مقلدين ولكنهم لا يوفقون كل التوفيق فيما يعالجون من احتذائه ، لأن أسلوبه ليس خالياً من الخصائص وإن تكن من اللطف والدقة بحيث تخفى على مقلديه . وأعرف أناساً يخلطون بين كلام وكلام سواه غير أن هذا مرجعه إلى ضعف التميز وعدم التفطن إلى الخائص الدقيقة التى لا تأخذها العين أول ما تأخذ .

* * *

لا أعرف ، ولا أستطيع أن أفهم ، مسألة اسمها « مسألة القدماء والمحدثين » ولكن الدكتور الذي أثار نقعها بلا مسوغ يبدىء فيها ويعيد ويشغل بها من كتابه حيزاً كبيراً فلنسمعه يتكلم : قال « لم يخل عصر أدبى فى حياة الأمم التى كان لها نصيب من الأدب وحظ فى إتقان القول وإجادته من هذه المسألة ، مسألة القدماء والمحدثين . ولم تظهر هذه المسألة فى عصر

من العصور أو عند أمة من الأمم إلا أحدثت خلافاً عظيما وجدالا عنيفاً وقسمت الأدباء على اختلاف فنونهم الأدبية أقساماً ثلاثة : قسم يؤيد القدماء تاييداً لا احتياط فيه وقسم يظاهر المحدثين مظاهرة لا تعرف اللين وقسم يتوسط أولئك وهؤلاء ويحاول أن يحفظ الصلة بين قديم السنة الأدبية وحديثها وأن يستفيد من خلاصة ما ترك القدماء ويضيف إليها ما ابتكرت عقول المحدثين من ثمرات أنتجها الرقى وأثمرها تغير الأحوال وتبدل الظروف » .

وهو كما ترى — أو فيما أرى أنا — كلام يحتاج إلى إيضاح فلنستزد الدكتور سطوراً أخرى :

« وفى الحق أن الاختلاف بين القديم والمحدث ليس متصوراً على الأدب وحده ... لأن الحياة الإنسانية تقوم على أصلين لا ثالث لهما ولا محيد عنهما ، هما البقاء من ناحية ، والاستحالة من ناحية أخرى . فنحن بحكم البقاء وحاجتنا إليه مضطرون إلى أن نصل بين أمس واليوم والغد ، مضطرون إلى أن نصل بين القديم والجديد ، مضطرون إلى نشعر بان حياتنا الآن هى ، إن لم تكن نفس حياتنا قبل الآن ، فهى أثر قوى من آثارها ونتيجة لازمة من نتائجها . ونحن بحكم الاستحالة والتطور مكرهون على أن نشعر بان يومنا يغاير أمسنا وبان حياتنا الآن ، إن أشبهت حياتنا أمس من وجه أو وجهين ، فهى تغايرها من وجوه .

« وإذن ، فنحن بين الشعور بالبقاء ، والحاجة إليه ، وبين الشعور بالتطور ، والحاجة إليه ، مترددون فى ميولنا وأهوائنا وآرائنا فمنا من يؤثر هذا الشعور بالبقاء فيغلبه على كل شىء فى نفسه حتى تصبح غايته الحقيقية ألا يكون إلا ابن أمسه ، وإلا حلقة من حلقات هذه السلسلة المتصلة التى لا نعرف لها أولا ولا آخراً ، وهى سلسلة الحياة . ومنا من يؤثر

هذا الشعور بالتطور والاستحالة ، فيكلف بالجديد ويرغب فيه ، ويندفع فى هذه الرغبة وذلك الكلف ، فلا يفكر إلا فى شيء واحد هو أن يعدو ، وأن يعدو ما استطاع ، إلى الأمام ، دون أن يقف فيفكر فى حاضره ، أو أن يلتفت فينظر إلى ماضيه . ويشتد الخلاف ويعظم بين هذين الطرفين المتناقضين ، بين أنصار القديم المسرفين فى نصره ، وأشياع الجديد الغلاة فى التشيع له يشتد هذا الخلاف ويعظم حتى يشعر به أوساط الناس وجماعاتهم المختلفة التى تخضع للحياة وتحياها هادئة وادعة غير شاعرة بتطور ولا ببقاء وإنما هى محققة لهذين الأصلين تحقيقاً طبيعياً ، غير متكلف ولا منتحل . تشعر هذه الجماعات الوسطى بما بين هذين الطرفين المتناقضين من جدال عنيف وخلاف عظيم فتتوسط بينهما ويظهر منها هذا القسم الثالث الذى هو خلاصة الأمة والذى هو المحقق الوحيد لاعتدال الطبع وصفاء المزاج والذى هو المحقق الوحيد للصلة الصحيحة المنتجة بين القديم وبين الحديث» اهـ .

والآن أفهمت ؟ كلا ؟ ولا أنا ! وأحسب الدكتور أراد أن يتفلسف فأخذ بأيدينا إلى أعماق مجهولة من الهواء الراكد فيما وراء المادة ولم يزد على أن أذكرنا تلك السراديب الرومانية التى تذهب فى كل اتجاه والتى احتفرتها أيدى الناس بحثاً عما لا ندرى ! وخيراً لنا أن ندع الدكتور وشأنه فى هذه السراديب ولنرفض أن ننحدر وراءه إلى هذا الظلام الدامس الذى أفاضه على موضوعه ولنبق حيث نحن تحت سماء الله المجلوة وبين مظاهر الحياة والطبيعة ، وليهنه « البقاء والاستحالة » نسأل الله له السلامة ! .

والمسألة أبسط من ذلك : أدب خلفه لنا الآباء يحسبه بعض المعاصرين المثل الأعلى ، وقد يكون كذلك أو لا يكون ، ويتوهمون أنهم يستطيعون بالمحاكاة أن يبلغوا مبلغهم ، وأنهم إذا استعاروا أجنحة النسور حلقوا مثلها فى سماء الحياة ، وأن فى وسعهم أن يوفقوا بين روح العصر الحاضر وأساليب التفكير والحياة القديمة . وهناك قوم آخرون مثلى ومثل الدكتور

لا يعنون أنفسهم بهذا التوفيق لا يتحرون إلا شيئاً واحداً هو الابانة عما فى نفوسهم . وهؤلاء فريقان : فريق يعنى بأن يدرس براعات الأدب القديم. وفريق لا يكترث لذلك . فالأمر كما ترى، لا يحتاج إلى كل هذه الفلسفة التى حصب الدكتور بها وجوهنا في فاتحة كتابه .

وأريد أن أخطو خطوة أخرى لأقول إن مقلدى القدماء لايقلدونهم ولا ينسجون إلا على منوال نفوسهم . وأن امكان النجاح فى هذه المحاكاة مستحيل ، وأنهم حين يكتبون لا يحتذون مثالا قديماً ، وأنهم واهمون إذ يظنون أنهم يطبعون على غرار السلف ، وأن السبب يسيط جداً وهو أن نجاح التقليد يستلزم أن يتكلف المرء أساليب تفكير عفى عليها الزمن ، وأن ينظر إلى الحياة من وجهة غيرها كر الأيام، وأن يتخيل جواً لا عهد له به ، وبيئة ووراثة انقطع فعلهما فى هذه الأيام . ولو أن رجلا من رجال العصر استطاع أن يتجرد من زمنه الحاضر وأن يكر إلى الماضى ويجىء بكلام لا يختلف فى شىء عن كلام رجل من كتاب العرب أو شعرائهم لكان فى نظرى أعظم من ذلك العربى ، وحسبك أن تقدر جهد الخيال الذى يتطلبه أن يرجع المرء بنفسه قروناً !

وخطوة أخرى أخطوها ، ذلك أنى أنكر انكاراً باتاً أن فوق ظهر الكرة الأرضية فى هذا العصر رجلا يكتب كالعرب . وهذا صادق أفندى الرافعى زعيم من نسميهم المقلدين وأنصار الأدب القديم : أى عربى كتب أو يمكن أن يكون قد كتب مثله ؟ وليس المقام مقام مفاضلة وإنما هو مقام محاجة . وهذه جملة مستقلة من كلامه فيما سماه من كتبه « السحاب الأحمر » لم أتخيرها ولكن وقعت عينى عليها اتفاقا ، ويجدر بى قبل أن أنقلها أن أعلن أنى لم أفهمها ؟ وهى قوله « قد يتغير الرجل فى نظر امرأته حتى تقول له : يا أنت الأول ويا أنت الثانى ، ولكنى عرفت رجلا قال لامرأته : يا أنت الخامسة والخمسين ؟ !؟!» ,

ولست آتى بجديد حين أقول إن من المستحيل أن يرجع أحد بنفسه إلى عهد العرب لأن الحياة لا سبيل فيها إلى هذا النكوص . فلا قديم ولا جديد ، وكل ما هنالك أن واحداً يركب عقله ويتعثر به فى الطريق الذى تسلكه قافلة العصر ، وأن آخر يركب رجليه أو مطية أخرى ويسير فى طليعة الركب أو بين سواده .

وان الكتاب ليحسنون جداً إلى الأدب إذا أراحونا من هذه الضجة الفارغة التى أثاروها حول القديم والجديد فان الزمن ماض لايثقل رجلا فمن سايره فهو معه ، ومن شاء أن يتكلف المحال فسينقطع عن القافلة وأمره إلى الله .

قليل من الفلسفة ؟!

نستأذن القراء الكرام فى قليل من الفلسفة . ولهم علينا عهد الله ألا نعود إلى ذلك . لا لأن الفلسفة مما يعسر عليهم « هضمها » ولا لأن « الصحف السيارة لا تصلح لمثل هذا » كما يزعم صديقنا الدكتور طه حسين في مقدمة كتابه الذى مللته لكثرة ما ذكرته ، بل لأنى لا أحسن هذا الضرب من الكلام . وما لنا لا نتفلسف وقد تفلسف الدكتور ؟ أترى ما تيسر له يعجزنا ؟ ألا يدخل فى طوقنا كما دخل فى طوقه أن نسوق كلاماً يستحى القارىء أن يقول لا أفهمه ؟ وما دام فى الدنيا من يشق عليهم أن يعترفوا بالعجز عن فهم ما يزعمه أصحابه فلسفة فإن الدنيا بخير ياسيدى ولنتفلسف فيها نحن أيضاً ! وأحر بفلسفتنا أن ترضى القراء وأن تكسبنا ثناءهم حتى إذا لم يفهموها كما هو المنتظر ! ذلك أنها دفاع عنهم فما أطيبنا والله ! فى سبيلهم نتجشم الغوص فى درك اللجة الفلسفية ، ومن أجلهم نقامس حيتانها المخوفة ونتعرض لأن يطبق علينا أحدها فكه الرهيب ويبتلعنا بكل ما تنطوى عليه من قدرة وحذلقة ، أو لأن نغرق ونرسب فى النهاية إلى جانب الدر الذى لا نعود به ، وبين الحصى والطين والحجارة التى نرتطم فيها . ولن ينفعنا القراء حينئذ وقانا الله شر خدمتهم !

ويغرينى باعتساف الفلسفة ومحاولة الركض بين وعورها ما أشرت إليه فى مقالى السابق وأسلفت عليه القول من زراية دكتورنا على القراء واعتباره اياهم غير أهل لأن يتكلف من أجلهم «التعمق فى البحث والالحاح فى التحقيق العلمى إذا كانت الصحف السيارة لا تصلح لمثل هذا» لا ياصديقى الدكتور . عفوك ! لو وسعك هذا الذى تقول إنك تجنبه لما أحجمت

عنه ولا صدك الاشفاق على رءوس القراء والترفق بأدمغتهم . ولو كان في جعبتك ما هو أغلى وأثمن لما طويته عن العيون ولاحتلت وتلطفت وألححت فى عرضه ولوفعته تبانا من كل ناحية .

وليس الدكتور وحده هو الذى يفعل ذلك فإننا جميعاً مع الأسف هذا الدكتور ، ومامنا إلا من يطيب له أن يدعى أنه قادر على خير مما يصنع وكما أن الفقير يتظاهر بالثراء ويحب أن يوهم الناس أنه أغنى مما يدل عليه ملبسه ومسكنه وطعامه وسائر ما عسى أن يبدو لهم منه ، ويستنكف أن يعترف بخصاصته ورقة حاله ، كذلك نحن معاشر الكتاب : يزعم كل معدم منا أو من لا يملك إلا فكرة واحدة أنه غنى العقل ، وربما أغرق فى الدعوى فقال إنه مليونير ! والناس فى العادة لا يخفى عليهم الغنى المادى ولا يعنيهم أن يقفوا على حقيقة الدعوى فيه ونصيبها من الصحة، ومن هنا ترى المفلسين لا يزالون يكبحون جماح دعواهم ليجعلوها أقرب إلى العقل وأحرى بالتصديق ، إذ كان لا يقبل ممن يمشى فى أسمال بالية ويسكن كوخاً حقيراً أن يقول إن المال عندى قناطير مقنطرة ، ولكنه لا يدفع السامعين إلى الانكار والجزم بكذبه إذا ادعى أنه ادخر مائة جنيه . فإن مائة جنيه لا تنافى كل المنافاة ما عليه ظاهر حاله . أما غنى العقل أو الفكر فما الحيلة فى دعواه ؟ ما طريقة حسابه والحكم عليه ؟ إنه غنى يدعيه لا الكتاب والشعراء والعلماء وحدهم —ولو اقتصر الأمر عليهم لهان الخطب وسهل الوزن والتقدير — بل كل من له رأس بين كتفيه . وهبك عرفت ما فى رأسه وأحصيته فقد بقى أن تعرف أهو من ماله الخاص أو ممن اقترضه من سواه أو مما يستربيه ؟ ؟ فمجال الدعوى كما ترى واسع رحيب ، والحدود هنا غير قائمة ، وكل ذى دعوة يرى من الأوفق له أن يغض عن دعاوى سواه ليغضوا عنه وليتبادلوا الموافقة ويتقارضوا التأييد !

وليس من مسكين مغموط الحق غير جمهور القراء . نكتب لهم طلباً لاعجابهم والتماساً لثنائهم ونشداناً للشهرة واستفاضة الصيت بينهم وتأبى لنا طباعنا المنكرة إلا أن نجعل الاستخفاف بهم وسيلتنا إلى اكتساب ذلك : يعرض أحدنا على القراء بضاعة مزجاة فإذا عوتب أو نوقش اعتذر بالسوق وأنها لا تحتمل إلا الخسيس الرخيص من الأصناف ، ويصفى ثان ويغدو كالدجاجة انقطع بيضها فيكبر عليه أن يقول فرغ رأسي ، ويروح يقول إن الأرض غير صالحة للبذر ومن الحمق أن أحاول زرع أرض ظهرها صفوان ، وقد علم أن العيب عيبه لا عيب التربة ، وأن مالا وجود له إلا فى رأسه — إن كان فيه شىء — هو فى حكم المعدوم ، وإنه وجود لخاطر على الحقيقة إلا إذا ترجمه الجمهور عن صاحبه ، ويجىء ثالث بكلام لا يكتبه بالقلم كما يكتب الناس ، بل بالبرجل كما يقول صديقنا الأستاذ العقاد فى وصف واحد من هؤلاء ، فإذا قلت له إنك تكتب ما لا يفهم استشاط وسب الشمس والقمر وقال إن منزلتى أن أكتب ومنزلتكم الا تفهموا ، إذ كنت اختلف عنكم فى الحسن وفى التفكير وفى الحكم على الأشياء ، وأصدر فيما أكتب عن الالهام الذى لا ينزل على العامة وأشباهها ! وهكذا .

والآن فلنتفلسف ! وفلسفتنا هذه جديدة إلا أنها مستمدة من سوانا كالحياة نفسها ، والحياة أبداً جديدة غير أن حاضرها متسلسل من ماضيها ومرتبط به ويسرني أن اعترف فى مستهل ، فلسفتى التى أرجو أن أوفق إلى بسطها وإيضاحها أنى مدين على الأكثر لصديقى الأستاذ العقاد وإن ما كتبه فى « فلسفة الجمال والحب » وذهب إليه فى هذا البحث من أن « الجمال هو الحرية » كان فتحاً مبيناً فى عالم الفلسفة وإن قوله

فى مقدمة كتابه[1] « إن الكون كله والحياة (وهى أعم من الكون فى نظرى) والفن ومناظر الأرض والسماء — كل أولئك مظهر للتآلف أو للتنازع بين الحرية والضرورة ، أو بين الجمال والمنفعة ، أو بين الروح والمادة ، أو بين أفراح الفن وأوزانه : قوي مطلقة وقوانين تحكم هذه القوى المطلقة ، وكلما ائتلفت القوى والقوانين اقتربت من السمة الفنية والنظام الجميل الذى يبين بالمادة صفاء الروح ويسبر بالقيود أغوار الحرية ؟ وهذا الائتلاف هو دستور الفن الإلهى المحيط بكل شىء وهو فلسفة الفلسفات فى هذا الوجود » أقول إن قوله هذا على الخصوص هو الذى فتح لى الأبواب المغلقة التى طالما أوهيت رأسى بنطحها .

نعم هذا هو دستور الفن الالهى : قوى مطلقة تحكمها وتنظمها قوانين وبغير ذلك لانستطيع ، ولو فاضت أرواحنا من شدة التفكير ، أن نعلل ما نلمحه من مظاهر التناقض فى الحياة ، وهذه الفقرة بعينها من مقدمة العقاد التى أعلن الدكتور طه أنه لم يفهمها ، هى مفتاحى الذى سأديره فيما سأتناوله الآن . وإذا كان لكل شيخ طريقته الخاصة به فسأبدأ بحثى من حيث أريد أنا لا من هذه الرباوة العالية التى أشرف العقاد من قمتها على الحياة ، وفى مرجوى أن آخذ بيد القارىء وأن أصعد معه درجة بعد درجة حتى نبلغ جميعاً هذه القمة .

بأيهما يحس الآدمي أولا : بنفسه أم بغيره ؟أظن أنه لا شك فى أن أول ما يحس به المرء بعد أن يأتي إلى هذه الدنيا ويشعر بشىء فيها ، هو نفسه . وفى وسع كل امرىء أن يتحقق من ذلك ويقطع الشك فيه باليقين وذلك بأن يلاحظ طفله لأول عهده بالحياة ، فإن كل طفل يظل زمناً غافلا عن كل ما يحيط به من الأشياء والناس ، بل أبويه بل أمه أو ظئره ، وظاهر

---

(1) مطالعات فى الكتب والحياة .

أن إحساسه بوجود غيره لا يكون إلا على الأيام ، أى شيئاً فشيئاً ولا ينمو ويقوى إلا تبعاً لنمو إدراكه لما بينه وبين ما حوله من الناس والأشياء من الصلات . ومعنى ذلك أن الاحساس بالنفس أو بالفردية سابق للاحساس بالغير وناشىء قبله . ولك أن تقول بعبارة أخرى إن الغرائز الاجتماعية مكتسبة إلى حد كبير . وليست كذلك الغريزة الفردية . أضف إلى ذلك أن الفرد وجد قبل النوع .

فالفردية هى السمة الأولى التى تبدبها الحياة أو تبدو معها . وثم سمة أخري لا خفاء بها هى أنه لاسبيل إلى الخلط بين اثنين وأن التطابق التام حتى بين التوأمين لا وجود له ، وبعبارة أخرى ، ليس فى الحياة فردان يمكن أن تصفهما بأنهما مترادفان كما تصف بعض الألفاظ تساهلا فى التعبير . نريد أن نقول إنه لا آخر للتنوع فى صور الحياة . أى أن الحياة مطلقة الحرية فى انتقال الصور التى تبدو فيها وتتشكل بها وان سبيل الحياة أن تخرج أشكالا متنوعة وأنها لا تتقيد فى ذلك بقالب معين ولا تلتزم فيه مانلتزم نحن مثلا فى الشعر أحياناً من الوزن أو القافية . ولا يتعجل القارىء فيعترض فما نريد أن نذهب إلى أبعد من أن « الأصل » هو الحرية المطلقة فى اختيار الصور والأشكال . ولو أن هذا لم يكن كذلك أى لو أن الحياة مقيدة بصورة أو صور معينة لا تخرج عنها لكان تعاقب الاحياء تكراراً شخيفاً لا معنى له . وتصور أن الناس مثلا يخلقون على طراز واحد لا يتغير ويصبون فى قالب لا يتعدد ! ألا يكون كل جيل فى هذه الحالة صورة معادة لكل جيل سبقه ؟ ؟ نعم بلا شك ! وماذا يكون معنى هذا التكرار المستمر ؟ لا معنى على الإطلاق وأحر بالحياة أن تكون إذن مسرفة سفيهة مملة . وما أحقها حينئذ بأن يحجر عليها من يستطيع ! ؟

كلا ! ليس فى الحياة إسراف ولا إملال لأنه لا تكرار هناك ولا إعادة . وكل فرد يخرج من يدى الحياة يكون الأصل فيه أنه نمط قائم بذاته مختلف عما عداه وحريتها فى ذلك مطلقة لا نهاية لها ولا حد . ولكن — نعم « ولكن » — لابد من القيد الذى تنتظم به الحرية وتصان من التبدد والانحلال المفضيين إلى العدم : وهذا القيد هو أن الناس لا يخلقون فى هذه الأيام كما خلق أولهم من الطين مباشرة أو من المواد الأولية . وإنما يأتى الإنسان من إنسان مثله وتخرج صورة الحياة الجديدة من صورة سابقة أى من أبوين . وهذا الجهاز الذى تمر به مادة المخلوق الجديد يطبعه بطابعه ويترك أثره فيـــه فيجىء الجديد مشابهاً للقديم وإذا كان هذا هكذا فكل فرد يأتى إلى دنيانا يكون نتيجة عاملين : حرية الاختيار التى تتوخاها الحياة فى صورها ، والوراثة الناتجة من التناسل والتى ترمى إلى الاحتفاظ بالصورة القديمة وإلى إعادتها ، وهذا هو علة الاختلاف من ناحية والتشابه من ناحية أخرى والمسألة كما ترى بسيطة سهلة المساغ وليس فيها تعويض بل لا جديد فيها فى الحقيقة ولا فلسفة !

وعسى من يسأل : ولكن ما علاقة هذا بالدكتور طه حسين وبما افتتحت به هذا المقال ؟ ؟ وجوابنا أن العلاقة وثيقة والصلة متينة . ذلك أولا أن الدكتور قد شاء أن يتفلسف فى كتابه فلم يبق لغيره عذر إذا لم يتفلسف ؟ ؟ وثانياً إننا أردنا أن نعلل هذه الظاهرة العجيبة : ونعنى بها تزلف المرء للجمهور وتظاهره بالاستخفاف به وبرأيه واستصغاره لقدره . فأردنا أن نقول بلسان الفلسفة إن من الدلائل القوية على أن الأصل أن الحياة مطلقة الحرية فى أخذ صورها وتنويعها أن كل واحد منا يحب أن يرتفع عن المستوى العام بالحق أو بالباطل لأن التميز دليل على وفرة الحيوية واربائها فى المرء على النصيب العادى ، وهذا التميز هو

الدليل من جهة أخرى على تغلب الفردية أى قانون الحياة على الوراثة التى تحاول كما قلنا وكما تعلم أن تجعل الناس صوراً متطابقة . ومن الذى يرضى أن يكون صورة مكررة من سواه لا تختلف عنه فى كثير أو قليل ؟ من الذى لا يحب أن يسمو فى نظر نفسه أو فى نظر سواه ، وهو المهم ، عن هذا المستوى العام ، وإنها لرغبة تنبىء عن احترام الحياة وتكشف عما بين قانونها والوراثة من التنازع . فإذا رأيتنى أو رأيت سواى يتسامى عن منزلة الجماهير فاعذره فقد عرفت الداعى إلى ذلك والباعث عليه واعلم أن « الجمهور » لفظ مرن يسعك فى كل لحظة أن تضيقه وتوسعه وأن تجعله كلما شئت يشمل كل الناس إلا « أنت وأنا » .

القـــديم والجـــديد

من الأوهام الشائعة أن الناس مولعون بكل جديد ، ومن الأمور التي يشكوها من يتنكبون الطرق المعبدة أن الناس لا يبادرون إلى متابعتهم حيثما يذهبون . فأي القولين أصدق ؟ وبأيهما نأخذ ؟

لقد أشرنا من قبل إلى أن سبيل الطبيعة أن تصل إلى غايتها من أهون سبيل ، أي أنها تتوخى أسهل السبل وأقلها كلفة وأعظمها اقتصاداً ، ولا بأس من أن نعود إلى ذلك بشيء من البيان يجلو غامضه ويحل مشكله ولنضرب مثلين أحدهما من الإنسان وثانيهما من غيره ولنبدأ بثانيهما فإنه أخف وأيسر إيضاحاً تسقط الأمطار على الجبال أو سواها فينحدر الماء ويحتفر لنفسه مسيلا. فهل علم أحد أن هذا الماء الجاري آثر ، منذ سأل على ويحتفر لنفسه مسيلا . فهل علم أحد أن هذا الماء الجاري آثر ، منذ سال على وجه الأرض إن يخترق الصخور أو يعلوها وزهد في اللين الدمث الذى لا يشق عليه إن ينساب فيه ! كلا ؟ ما علمنا على الماء من حماقة كهذه ! فهو إذا صادفته أرض صخرية لم يتلبث عندها ريثما يحفر فيها مجراه بل راح يترقرق فوقها . وإذا اعترضته وعور ذاهبة في الجو لم يتجشم أن يعلوها ويطم فوقها إذا وجد مجازاً له عن يمينها أو شمالها . ودع هذا وتأمل الإنسان وسل نفسك ما السر في أن المرء يصعب عليه أن يغير ما كوّن لنفسه من العادات ؟ أليس لأنها لا تتقاضاه من الجهد ما تكلفه مخالفتها ؟ مثال ذلك أن تكون قد ألفت أن تسلك طريقــاً معيناً بين بيتك وبين المكان الذي تزاول فيه عملك اليومى . فأنت كلما ذرت الشمس تكرر ما عملته في الصباح الماضى وتزايل بيتك وتقودك رجلاك وأنت لا تشعر إلى هذا الطريق المعين وتدبان بثقلك عليهما فيه كعادتهما في كل يوم . ومن المؤكد أن سلوك هذا الطريق لا يكلفك تنبهــا خاصاً أو تفكيراً

وإنك حين تمشى فيه وتمر به كل يوم لا يلفتك فيه شيء . شأنك فى ذلك من بعض الوجوه كشأنك حين تأكل : تمتد يدك إلى اللقمة فتتناولها ثم ترتفع إلى فمك ومنه تهوى إلى جوفك . وليس ليدك عين ترى بها مكان فمك من وجهك ، ولسنا نعلم أن يد المرء تخطىء وترتفع إلى الأنف . فقد اعتادت أن تحسن تقدير المسافة وأصبح الجهد اللازم لذلك يبذل بطريقة آلية وكذلك رجلاك تحملانك فى الطريق المألوف وتذهبان بك فى منعطفاته دون أن تفكر أنت فى شيء ولكنك حين تسلك طريقا آخر غير الذى ألفته تلفى نفسك تستعمل عينيك وتجيلهما فيما هو أمامك وعن يمينك وشمالك ، وقد تفكر فى طوله أو قصره بالقياس إلى طريقك المعتاد ، وفيما هو قائم على جانبيه من المساكن أو الأشجار وغير ذلك ، وقد يعقد ذهنك مقارنات ومقايسات كثيرة ويجرك هذا إلى مواضيع شتى قد تشغلك النهار أو بعضه أو أكثر ، من ذلك وهذا كله جهدلاتبذل شيئاً منه حين تأخذ فى طريقك المألوف . وكذلك ، الحال حين تتناول طعامك بغير اليد التى ألفت أن تتناوله بها .

ولم تكن الحياة نفسها تعجز عن أن تخلق الناس فى أيامنا هذه كما خلقت أولهم وأسبقهم فى الوجود ، أعنى من طينة الأرض التى صيغ منها المخلوق الأول — كائنا ماكان هذا المخلوق — ولست أعنى بطينة الأرض وحلها ، وإنما أعنى المواد الطبيعية الأولية . كما هو ظاهر بالبداهة . ولكن الحياة لا تفعل ذلك الآن ،وقد كفت من زمان طويل لا يعرف حسابه إلا الله سبحانه وتعالى ، عن إخراج المخلوقات على هذا النحو العتيق،وصرنا نخرج إلى الدنيا بطريقة التوالد، إذكان خلق الإنسان بالتوالد أسهل من إعادة كل أدوار التطور الماضية، كلما أريدخلق إنسان . ولأن التوالد يتيح المرور بمختزل هذه الأدوار وبسرعة، فلا حاجة لتكلف المرور بها على نحو مطابق للأصل . وإذ كان هـذا الكلام يحتاج إلى تفسير فليلم القارىء — إذاكان ممن يجهل ذلك — أن المرء يعيد على صورة مصغرة

مختزلة ما مرت به الإنسانية من أدوار النشوء ، وللقارىء أن يصدق هذا أو لا يصدقه ، فإن كانت الأولى فله منا الشكر الجزيل على الثقة بنا والاطمئنان إلينا ، وإن كانت الثانية فلا ضير عليه أو علينا ولن يمنع إنكاره أن الأمر كما نقول ،والحال على ما نصف ووقتنا وصدرنا أضيق من أن تتجشم إثبات ذلك له على حين يستطيع هو أن يريحنا بان يقرأه فى أكثر من كتاب واحد .

والآن فلننتقل إلى شىء آخر ، وليحضر القارىء إلى ذهنه تلك الآلة الموسيقية التى يسمونها القانون . وهى آلة ذات أوتار كثيرة يحتاج الضارب عليها أن يعيد إصلاح أوتارها كلما أراد أن ينتقل إلى « نغمة » مغايرة للنغمة الأولى ومن باب غير بابها . ولكنه لا يحتاج إلى أعداد أوتاره وتهيئتها من جديد إذا كان الانتقال بسيطا وفى موضع واحد أو مواضع قليلة من الصوت الذى يوقعه ولم يكن عاما شاملا . وتحسب هذا معروفاً مفهوما . وما منا إلا من رأى ذلك وشهده بعينيه. فصاحب القانون لا يغير شد الأوتار،ولا يكف عن التوقيع عليها ليعالجهـا من جديد ، إذا كان الخروج عما هيأ له أوتاره جزئيا غير تام . وهو حين يحدث هذا الخروج الجزئى عما استعد له بآلته لايتعبه هذا الخروج ولايصدمه ولا يكلفه أو يكلف الأوتار فوق طاقته وطاقتها فيستمر العزف أوالتوقيع كأن لم يحدث انتقال ما .

كذلك الناس حين يجيئهم واحد منهم بمـا هو أشبه بقديمهم الذى ساروا عليه وألفوه ، لا يحسون أن جديداً طرأ أو أنهم يحتاجون أن يصلحوا نفوسهم ويهيئوها تهيئة خاصة لتلقى هذا الطارىء واستقباله . ولا يشعرون بدافع إلى المقاومة اتقاء لمـا يـكلفهم اطراح ما اعتادوه من الجهد . ومن الأمثلة كتابات المنفلوطى رحمه الله . وهذه لم يكن فيها جديد ، بل كلها مما شبوا وشابوا عليه . وكل مافى الأمر أنه جعل

لكلامه طلاء أو لوناً لا يحيلـه عن أصله، ولا يخرجه عن تيـاره . وشبيه بذلك أن تستحدث ألواناً جديدة في الملابس دون أن تغير الشهرة (المودة) في تفصيلها – فلا يصدم الناس منها شيء كبير ،ولا يجعلهم على التردد في قبولها والإقبال عليها أنها مخالفة لما يجرى عليه العرف . ولكن لنفرض أن حائكا سن لنا شهرة جديدة كل الجدة، كأن يرتد بنا إلى خمسين أو ستين سنة،ليحيي طرازاً كان شائعاً يومئذ،أو كأن يستحدث أسلوباً تكون الأزرار من الخلف لا من الأمام أو تكون السترة أو ما يسمونه « الجاكتة » أشبه بالشملة . فهل يقبل الناس على تلقف هذا الطراز ؟ كلا ! يتحرجون في أول الأمر وينكرونه ، ويظلون يتهيبونه زمنا طويلا أو قصيراً على قدر بعده من مألوفهم ، حتى يتهيئوا لقبوله شيئاً فشيئاً، ويقتنعوا بصلاحه وجماله على الأيام،إن كان له نصيب من الجمال والصلاح . وهذا هو الذى يحدث حين يخرج كاتب أو شاعر على التقاليد والسنن،وينهج سبيلا غير التى ألِفَ الناس أن ينهجها الكتاب ، أو حين يأتى عالم أو فيلسوف برأى يقلب مانشأ الجمهور على اعتقاده . ولماذا في ظنك كان أهل أوربا في القرون الوسطى يستنكرون أن يذهب أحد إلى أن الأرض دائرة،أو أنها ليست محور الوجود وقطب الكون أو أن الشمس لا تدور حولها،بل هى التى تدور حول الشمس. أم الشمس التى تدور حولها ؟ ماذا كر بهم من ذلك فى حياتهم أو أفسدها عليهم حتى آذوا القائلين بما اعتقدوا من خلافه ؟ لاشىء سوى أن الرأى الجديد كان خطوة فى عكس الطريق الذى درجوا عليه، كما درج آباؤهم ، وكان من شدة المغايرة وفرط المعارضة لمألوفهم ، بمثابة القول بأن الأنف مجعول لمضغ الطعام، والأذن للشم ، والعين للسمع . والناس إنما يسهل عليهم الأخذ بالجديد إذا كان مقاربا لما اعتادوه وكان كأنه امتداد له ولم يكن مغايراً فى جوهره لآرائهم أو أذواقهم .

وقد قلت حين سقت مثل الحائك « لنفرض أنه سن لنا شهره جديدة كل الجدة ، كأن يرتد بنا خمسين أو ستين سنة ليحيي طرازاً كان شائعاً يومئذ » ، وأعني بذلك أن القديم الذى مضى زمنه وانقضى عهده يكون فى حكم الجديد ، وله وقعه وصدمته حين يراد إحياؤه ، لأنه يكون جديداً فى نظر من لم يألفه ، واعتبار من لم يدركوا زمنه ، وعلى أن هذا فرض قائم على استحالة إذ كان إحياء القديم يتطلب أن تتوفر الأحوال والمقتضيات والحالات النفسية والفكرية التى عفى عليها الزمن وطوى صفحتها .

وبعد فليس بصحيح أن الناس مولعون بكل جديد ، وإنما الصحيح أنهم يقاومونه ويتهيئون له على الأيام ، وأن جديد اليوم إذا كان صالحاً خليق أن يصبح مألوف الغد . ومن حق الجمهور علينا أن نحمد له ذلك ، وأن نشكر الله عليه . إذ حقيق بالدنيا أن تنقلب بيمارستاناً ضخماً ، لو أن الناس فيها كانوا يبادرون إلى الأخذ بكل جديد ، وإجابة كل مهيب ، فليس كل جديد صالحا والاتزان فى الحياة ألزم وأجدى وأكفل ، باطراد التقدم من طيش التعجل .

العمى والغريزة النوعية

— ١ —

ليس الأعمى كالبصير . هذه ، فيما نظن ، قضية مبرمة . ولسنا نعنى أن أحدهما دون الآخر أو أفضل منه ، فليس المقام مقام مفاضلة ، ولكنا نعنى أنهما مختلفان ، وهل يستوى أن يكون أو لا يكون للمرء فى وجهه عينان ؟ أليس لهذه الجارحة عمل يمتنع إذا تعطلت ؟ ألا يحدث كف البصر تأثيراً فى مزاج الإنسان وفى تفكيره وإحساسه بالحياة والناس وغير ذلك مما لا يسعنا حصره ؟ نعم . وأن الأمر لأوضح من أن يحتمل الخلاف . وسنتناول فى هذا المقال وجهاً من وجوه الاختلاف العديدة لعل ذلك يجلو ما أشرنا إليه فى الفصل السابق إنجازاً لوعدنا وإتماماً لكلامنا .

الغريزة النوعية من أقوى غرائز الإنسان ، ومظهرها الحب كما هو معروف ، والحب — كما لا نحتاج أن نبين — هو أداة التنظيم الكبرى لحياة الناس ، والقوة الدافعة إلى تحسين النوع والحيلولة دون انحطاطه . وليس هنا محل الكلام فى الحب ولكن هنا موضع التنبيه إلى أن العين أداته الأولى ، والنظر حاسة « اجتماعية » ليس أعون منها على الإحساس بالجمال ومضاعفة هذا الإحساس وتقويته .

ومن هنا عجب الناس لبشار بن برد كيف يعشق امرأة « معينة » وهو ضرير فسألوه فى ذلك ، أو أحس هو أن الأمر يحتاج إلى إيضاح وتفسير ، فذكره فى شعره فكان مما قال :

ياقوم أذنى لبعض الحى عاشقة
والأذن تعشق قبل العين « أحياناً »
قالوا بمن لاترى تهذى فقلت لهم
الأذن كالعين توفى القلب ما كانا

وقد أحسن الاحتياط فى قوله «أحياناً» فما تستطيع الأذن أن تقوم مقام العين أو تسد اختلالها ، ولقد صدق ابن الرومى حين قال :

هل العين بعد السمع تكفى مكانه
أم السمع بعد العين يهدى كما تهدى ؟ ؟

ولكل منهما عمل . وتأمل بيتى بشار اللذين سقناهما لك،وانظر كيف روى عن الناس أنهم قالوا له أنه « يهذى » بمن لايرى . وما أرى أصلح من هذا اللفظ ولا أحق بهذا الموضع . وهل هو إلا ضرب من الهذيان الصريح مهما أولته وكيفا خرجته ؟ ولقد احتاج أن يكرر الرد والاحتجاج لنفسه فقال :

وكاعب قالت لأترابها — يا قوم ما أعجب هذا الضرير !
هل يعشق الإنسان من لايرى — فقلت والدمع بعينى غزير
إن تك عينى لا ترى وجهها — فإنها قد صورت فى الضمير

وما نشك فى أنها صورة ملتاثة. إن صح أن من الممكن أن تتمثل لضمير الأعمى صورة ما ، أو يجاوز الأمر معه الإحساس العام . وعلى أى شىء تراه يقيس ؟ ومن أى شىء يؤلف هذه الصورة ؟ وقوله :

إن سليمى ، والله يكلؤها — كالسكر تزداده على السكر
بلغت عنها شكلا فأعجبنى — والسمع يكفيك غيبة البصر

وقوله :

عجبت فطمة من نعتى لها — أيجيد النعت مكفوف البصر

وقوله :

يزهدنى فى حب عبدة معشر — قلوبهم فيها مخالفة قلبى
فقلت دعوا قلبى وما اختار و ارتضى — فبالقلب لا بالعين يبصر ذو اللب
وما تبصر العينان فى موضع الهوى — ولا تسمع الاذنان إلا من القلب

ولأمر ما عالج هذا المعنى فى قصائد عدة ولم يجتزىء بالإشارة إليه مرة . والعين باب القلب كما يقول البحترى .

وما كان حظ العين فى ذاك مذهبى
ولكن رأيت العـين باباً إلى القلب

والجمال منظر ومعان وتعبير . والعين أقدر من السمع واللمس على إفادة الاستمتاع به . إذ كانت هى الطريق الأكبر للالتفات إليه والشعور به والإحاطة بمعانيه . ولأنها هى المعين على تأليف الصور الذهنية . وهى صور تتألف من أشتات أخرى علقت بالذاكرة وحصلت بالنظر . وبحسبك أن تقرأ قصيدة ابن الرومى فى وحيد المغنية وكان بها مشغوفاً :

غادة زانها من الغصن قد ومن الظبى مقلتان وجيد
وزهاها من فرعها ومن الخد ين ذاك السواد والتوريد
فهى برد بخـدها وسلام وهى للعاشقين جهد جهيد
ما لما نصطليه من وجنتيهـا غير ترشاف ريقها تبريد
وغرير بحسنها قال صفها قلت : أمران، هيِّن ، وشديد
يسهل القول إنها أحسن الأشـــياء طراً ، ويصعب التحـديد
تتجلى للنـاظرين إليهـا فشـقىٌّ بحسنها وسـعيد
ظبية تسكن القلوب وترعا هـا وقمرية لهـا تغريد
تتغنى كأنهـا لا تغنى من سكون الأوصال وهى تجيد
لا تراها هناك تجحظ عين لك منها ، ولا يدر وريد
من هدو وليس فيه انقطاع وسجـو وما به تبليد
مد فى شأو صوتها نفس كا ف كأنفاس عاشقيها مديد
وأرق الدلال والغنج منه وبراه الشجى فكاد يبيد

فتراه يموت طوراً ويحيا مستلذ بسيطه والنشيد
فيه وشي وفيه حلى من النغـــم مصوغ يختال فيه القصيد
طاب فوها وما ترجع فيــه كل شيء لها بذاك شهيد
وحسان عرضن لى ، قلت مهلا عن وحيد ، فحقها التوحيد
حسنها فى العيون حسن جديد فلها فى القلوب حب جـديد
ونصيح يلومنى فى هواها ضل عنه التوفيق والتسديد
لو رأى من يلوم فيه لأضحى وهو لى المستريث والمستزيد
ضلة للفـؤاد يحنو عليهـا وهى تزهو حياته وتكيد
سحرته بمقلتيهـا فأضحت عنده والذميم منها حميد
خلقت فتنة غناء وحسناً ما لهـا فيهما جميعاً نديد
فهى نعمى يميد منها كبير وهى بلوى يشيب منها وليد
لى حيث انصرفت منها رفيق من هواها ، وحيث حلت قعيد
عن يمينى وعن شمالى وقـدا مى وخلفى فأين عنه أحيد
سد شيطان حبها كل فج إن شـيطان حبهـا لمريد
ليت شعرى إذا أدام إليها كرة الطرف مبدى ومعيد
أهى شيء لا تسأم العين منه أم لها كل ساعة تجديد ؟
بل هى العيش لا يزال متى استعر ض يملى غرائبـاً ويفيد
منظر ، مسمع ، معان من اللهو ، عتاد لما يحب عتيد : الخ الخ

وقد أطلنا الاقتباس لأنا لا نعرف قصيدة أخرى فى لغة العرب وقد كدنا نقول أو فى سواها من آداب الأمم الأخرى — هى أجمع من هذه لمعانى الحب والجمال، ولأن ابن الرومى تناول فيها المرئى والمسموع ولقد يذكر الكفيف الغصن والظبى وما إليهما مما يشبه به شعراء العرب،

ولكن هذا منه لايكون إلا تقليداً وعلى السماع وبمقدار ما أشربت نفسه من روح اللغة وأساليب التعبير فيها ، ومن غير أن يكون ذلك صادراً عن صورة في الضمير وأى صورة فى ظنك يمكن أن تكون قد حصلت فى نفس بشار وهو يقول :

وكأن رجع حديثها قطع الرياض كسين زهرا ؟

لا صورة على الإطلاق ! وكل ما هنالك مما دفعه إلى هذا التشبيه هو نسيم الرياض المنعش الجسم المحيي للنفس . وقد يتناول المكفوف الصوت ووقعه ، ولكن الهيئة والشكل يفوتانه ، ولا يسعه أن يحضر بما يسع ما يحضره البصير ، ويتمثله من الصور ، كما فعل ابن الرومى فى وصفه لغناء وحيد. فقد تراه يتعلق بهيئتها ، وسكون أوصالها إذا تغنى ،واحتفاظها بجمال شكلها ، فلا عين تجحظ كالوارمة ، ولا وريد يدر ويمتلىء بالدم وينتفخ ويشوه شكل الجيد وانسجامه . وانظر كيف جعل لغنائها وَشْياً وَحلْياً « مصوغاً » لا ساذجاً لم يعمل فيه الفن. وجعل الشعر «يختال » فى هذا الحلى وكيف مثل لك فسحة الخلو وفراغ البال ، بالقياس إلى ما صار اليه من أخذ الحب عليه بالإسداد ، وذلك بقولة « سد شيطان حبها كل فج »،وكيف نبه إلى ما يمليه النظر ويفيده من معانى الجمال بقوله « ألها كل ساعة تجديد؟» وتشبيهه أياها بالعيش الذى لايزال يعرض الغرائب .

وما لنا نقول أن بشاراً اضطر أن يعلل عشقه للنساء بأعيانهن وتشبيبه بهن ؟ ما بشار هذا ؟ انه ليس سوى فرد قد لا يصح اتخاذه قاعدة. ولكن تأمل أمثال الأمم وأساطيرها فانها خلاصة صادقة لتجاريبها وغرائزها . ومن الأمثال التى نجدها فى كل لغة أن الحب أعمى. نعم . ولقد صور القدماء

«كوبيد» معصب العينين . وليس أحذق من هذا الطفل مع ذلك ولا أشد ساعداً ولا أحكم ، وكأنما أرادوا أن يقولوا إنه لا يرى مالا يحب، بل أرادوا أن ينبهوا إلى أن كوبيد هذا كله عيون، ولولا ذلك ما عصبوها فلفتونا اليها ودلونا عليها . ولو شئنا لاجتزأنا بهذا من أساطير القدماء، ولكن بنا حاجة إلى أسطورة أخرى[1]. تلك أن فينوس أو الزهرة كانت في بادىء الأمر ربة الربيع وبساتين الزهر ، ثم جعلوها ربة الجمال . وفي ذلك مالا يخفى من الشعور الباطني بالعلاقة القوية بين الحب والطبيعة في عيدها . وفي خرافاتهم أن الزهرة هذه مخلوقة من زبد البحر ، ومن حقها أن تولد منه . فياما أفطن القدماء وأهدى غرائزهم ! ذلك أن المحدود الذي يقاس طولا وعرضاً لايروقنا، ولا يقع من نفوسنا ، كما يستولى على هوانا ، ويسحرنا ما تتدفق فيه الحياة . والجمال ليس شكلا فحسب، بل هو أيضاً تعبير ولحظة انتقال ، كأنما يريد الشكل المجتلى أن يتدفق في أشكال أخرى . وكل ثبات أو تكويم أو ركوز أو حصر مفسدة، كما تحس ذلك من الأنف الضخم أو الظهر المحدوب . ومن هنا كان الإنسان أجمل ما في الطبيعة . ومن الوجوه ما يموج فيه تعبير النفس، أو حركة الفكر ، حتى لتكاد تتخطى العين معارفه ، وتخطئها ولا تراها .

والعيون نصف الجمال ، وهي مدار السحر ومبعث الفتنة ، لأنها أنطق الجوارح وأقدرها على التعبير ، وليس من المصادفات أن ولع الشعراء بذكرها ورمزوا بها في كثير من الأحيان إلى الجمال وأطلقوا هذ الجزء على الكل ، كما تري مثلا من قول المتنبي .

عزيز أسى من داؤه الحدق النجل

عياء به مات المحبون من قبل

فما يعنى الأحداق على وجه التخصيص ، وانما هو من قبيل ما ذكرنا

وليس فى وسع المكفوف أن يحس الجمال كما يحسه البصير أو يتأثر به مثله، لأنه ليس محروماً من منظره وحده، بل من أكثر معانيه كذلك،ومما يتصل به عن قرب أو بعد ، ومن الطبيعة أيضاً . وقد حجب عنه كل ما يمكن أن يقيس به. وأحر بأن لايكون عنده فرق يذكر بين النساء،وأن تكون كل امرأة متسربة فى الجنس ، والإحساس بها إحساساً جنسياً عاماً ، وأن تكون النساء كلهن كانما أفرغن فى قالب عام ، وقيمهن واحدة من حيث التناسل ، وأن لاتثير الغريزة النوعية إلا رغبة عامة فى الأنثى . لا ترتقي (أى الرغبة) إلى درجة التمييز ولا تبلغ أسمي منازله لانعدام ما يعين عليه . وفى وسعنا أن نقول مع قليل من التجوز ،إن الفرق بين المكفوف والبصير من هذه الناحية كالفرق بين الشعوب الساذجة التى لا تزال على الفطرة والشعوب التى ارتفعت عن هذا المستوى ،وصار التميز الفردي فيها حاداً أو بارزاً مؤكداً . تلك تكون .الغريزة النوعية عندها عبارة عن رغبة عامة من الذكر فى الأنثى ومن الأنثي فى الذكر وهذه تتوخي التعيين والاختيار، وكذلك الكفيف تستوي عنده امرأة وامرأة ، وهو إذا اختار وميز لا يكون ذلك مرجعه إلا إلى أسباب لا تخطيء جداً،إذا قلنا إنها سطحية أو عارضة بعد أن لم يبق له من الأدوات سوى السمع واللمس ، وما أقل غناءهما وأشد ضلالها .

— ١ —

المرأة بين بشار وأبى العلاء

السمع واللمس — والشم أيضاً — كل ما للمكفوف من وسائط الإحساس بالجمال ، وهى ، كما بينا ، أقل من النظر غناء ، لأن العين هي الاداة الكبرى . وهى أنفس الجوارح وأوثق الحواس اتصالا بالعقل ، حتى لترى أكثر المجازات فى هذا الباب مستمدة من حركاتها وإحساساتها، والعقل عنها أفهم، وبها أقوى وأقدر ، وما يسع الكفيف أن يفهم الجمال

أو يتأثر نه كالبصير . والمرأة عنده في الأعم أنثى يصبو جسد الرجل إلى جسدها ، وأداة يرضى بها غريزته . وهو مهما بلغ من السمو يظل إحساسه بالمرأة أدني إلى الطبيعة الحيوانية منه إلى المعانى النفسية . وسنورد لك أمثلة من شاعرين متباينين أشد التباين : بشار والمعرى . وكان أولهما حيواناً والثانى إنساناً ، وكان بشار إن فرغ من التشبب بالنساء ، أو على الأصح من وصف ما يشتاق إليه منهن ويطلبه عندهن من اللذات ، لم يفرغ من ذكر فحولته ، وَتَنَزّيه ، فهو أبداً حيوان حين يذكر نفسه وحين يذكر المرأة . فمن ذلك ما حكوه من أنه علق امرأة وراسلها ، يسألها أن تواصله . فقالت لرسوله ، « أولك في وأنت أعمي لا ترانى ؟فتعرف حسنى ومقداره ؟ وأنت قبيح الوجه فلاحظ لى فيك ؟ فليت شعرى لأى شيء تطلب وصال مثلى ؟ » فأدى الرسول الرسالة . فقال بشار عد إليها فقل لها — ونحن نمسك عن إيراد الأبيات لفرط ما فيها من الفحش ، وحسب القارىء أن يعلم أنه أهمل كل ما يمكن أن يتفضل به الرجال ، ولم ينظر إلا إلى الجانب الحيوانى الصريح الذي يتساوى عنده الناس والبهائم ، وأخلق بالبهائم أن ترجح على الإنسان من هذه الناحية ، وحتى حين يتخيل حبيبته لا يخرج بها عن دائرة الحواس ومن ذلك قوله في عبدة :

أعددت لى عتباً بحبكمو ... يا عبد طال بحبكم عتبى
ولقد تعرض لى خيالكمو ... في القرط والخلخال والقلب
فشربت غير مباشر حرجا ... برضاب أشنب بارد عذب

والمرأة عنده أنثي تشتهى وتنال ولا تستعصى على الطالب

قاس الهموم تنل بها نجحاً ... والليل ، إن وراءه صبحاً
لا يؤنسنك من مخبأة ... قول تغلظه وإن جرحا
عسر النساء إلى مياسرة ... والصعب يمكن بعدما جمحا

وهو القائل أيضاً :

لا أبالى من ضَمن ً عنى بوصل إن قضى الله منه لى يوم جود

وكان يعمل بما يعلم ، وحكايته مع أمامة مشهورة ، قالوا كان يبعث بغلامه إليها فتتمنع . فلما أضجرها بإلحاحه عرفت زوجها ، فقال لها أجيبيه وعديه أن يجيء إلى هنا ، ففعلت ،وجاء بشار مع امرأة أنفذتها إليه ، فدخل وزوجها جالس وهو (بشار) لا يعلم فجعل بشار يحادثها ثم قال :

أمامة قد وُصفت لنا بحسن وأنا لا نراك فألمسينا

فاخذت يده ودفعتها إلى زوجها ففزع بشار ووثبَ ؟؟ ومن قوله :

قـــال ريم مرعث فاتن الطـــرف والنظر
لست والله مـــدركي قلت : أو يغلب القدر

وله رأى في شعر النساء يوافق تصويره لهن قال : ما من شعر تقوله امرأة إلا وفيه سمة الخنوثة : ولبشار حكاية ليس أتم منها على انحصار الإحساس بالمرأة في الرغبة الحيوانية ،وانتفاء الاهتمام بما وراء ذلك، والعجز عن إدراكه ، ولكنا مع الأسف لا نستطيع أن نسوقها لشناعتها.فليبحث عنها من شاء في أخباره المبعثرة ،أو فيما جمع له الأديب أحمد افندى القرنى . ونوجز فنقول ، إن بشاراً لم يكن ينظر إلا إلى الأنوثة في المرأة والفحولة في الرجل ، وأنه لم يعرفها سوي متاع يجس ويشم ويستمع إليه .

أما أبوالعلاء فقد كان وقوراً محتشما متشائماً ، رافضاً للحياة مزدرياً للمرأة، وهي (أى المرأة) عنده لا تضمن عفتها ، وأقل ما تجنيه ، التبرج، ومن الواجب أن يداريها الرجل الذي يعايشها ، ويسترضيها ويتقى غضبها ويراقبها ، فكثيراً ما تظهر الغيرة على بعلها،وتسود عيشه من أجل ذلك بينما هي تسقى الخليل ريقها !

لعمـــــرك ما غادرت مطلع هضبة

من الفكر إلا وارتقيت هضابها

أقل الذى تجنى الغـــــوانى تبرج

يرى العين منها حليها وخضابها

فإن أنت عاشرت الكعاب فصادها

وحاول رضاها واحذرن غضابها

فـــــكم بكرت تسقى الأمر حليلها

من الغار ، إذ تسقى الخليل رضابها

وإن حبال العيش ماعلقت بهـــــا

يد الحى إلا وهي تخشى انقضابها

ويحول سخطه على الحياة ، إليها ، ويصب نقمته على رأسها ، ويقلب ما يكبحه من اشتهاء نفسه لها ورغبة جسمه فيها ، فيجعله تهالكا منها على اللذات ، واستهتاراً في ارضاء الشهوات ، ويسلبها كل ماعدا ذلك ، ولا يراها إلا أداة نسل ، ومطية شهوة ذلول ، فهى عنده حية سامة .

وإنما الخلود فى مساربها كربة السم في تسربها

وما فضل النساء ؟ ولأية غاية يطلبن الرجل ؟ أليس للنسل ؟

صحبتك فاستفدت بهن ولدا أصابك من أذاتك بالسمات

ومن رزق البنين فغير ناء بذلك عن نوائب مقمات

فمن ثكل يهاب ومن عقوق وأرزاء يجئن مصممات

وان تعط الإناث فأى بؤس تبين فى وجوه مقسمات
يردن بعولة ويردن حلياً ويلقين الخطوب ملومات
ولسن بدافعات يوم حرب ولا فى غارة متغشمات
وقد يفقدن أزواجاً كراماً فيـــا للنسوة المتأيمات

وما النساء عنده إلا :

فوارس فتنة أعلام غى لقينك بالأساور معلمات

ولايغرنك عكوفهن على المصلى

وليس عكوفهن على المصلى أماناً من غوارر مجرمات

والمغزل أولى بهن من القلم

ولا تحمدحسانك إن توافت بأيد للسطو مقومات
فحمل مغازل النسوان أولى بهن من البراع مقلمات

وليكن أخذهن التلاوة عن عجوز مهتمة

ليأخذن التلاوة عن عجوز من اللائى فغرن مهتمات
يسبحن المليك بكل جنح ويركعن الضحى متأثمات
فما عيب على الفتيات لحن إذا قلن المراد مترجمات

وإذا احتاج الأمر لمعلم فينبغى أن لا تدنو الفتاة حتى ولا من رجل ضرير إلا أن يكون هرماً هماً مرتعش اليدين أبيض اللمة .

ولا يدنين من رجل ضرير يلقنهن آيا محــكمات
سوى من كان مرتعشاً يداه ولمتــــه من المتثغمات

وخير للشيخ الفقير أن يتزوج متنعمة فإن الفقر والشيخوخة بابان إلى العظائم ، والشيب مغتفر مع الغنى إذا كانت « قوى الرجل موفورة » وفى زوجة واحدة كفاية .

ولا يتأهلن شيخ مقل بمعصرة من المتنعمات
فإن الفقر عيب إن أضيفت إليه السن جاء بمعظمات
ولكن عرس ذلك بنت دهر تجنبت الوجوه محممات
ويغتفر الغنى وخطا برأس إذا كانت قواك مسلمات
وواحدة كفتك فلا تجاوز إلى أخرى تجىء بمؤلمات

ويختم هذه النصائح بأنها من خبير مجرب شفيق

فهذا قول مختبر شفيق ونصح للحياة وللمات

والرجال لا يؤتمنون على النساء

وأمن على المال الرجال ولا تأمنهمو أبداً على الخرد

وإذا بلغ الغلام العاشرة فاحجب النساء عنه ولا تدخله عليهن فإنهن حبال غى بهن يضيع الشرف

إذا بلغ الوليد لديك عشراً فلا يدخل على الحرم الوليد
فإن خالفتنى وأضعت نصحى فأنت وإن رزقت حجى ، بليد
ألا إن النساء حبال غى بهن يضيع الشرف التليد

واضرب على المرأة فإن إرخاء العنان لها يغريها بركوب مالا يحمد

شر على المرأة من حمامها إرسالك الفاضل من زمامها
ومشيها تضرب فى أكمامها تفرح ريا الطيب من أمامها

زائرة المسجد في إلمامها　　تأثم ، والحيبة في ائتمامها
بأجدل ماعف عن كمامها　　أعاذها الخائق من أمامها
وريقها الشروب في صيامها　　سمام أفعى بان من سمامها
إن نزلت عصماء من سمامها　　فلا سقاها الطل من غمامها
إذا احتوى الريم على رمامها　　لزومها البيت مع اهتمامها
حتى يجيها الوفد من حمامها　　وحملها المغزل في إتمامها

أو في بما تعقد من زمامها

وأخف ماوصفها به أنها خيالات ولعبة .

وما الغواني الغوادي في ملاعبها　　إلا خيالات وقت أشبهت لعباً

وانتقل الآن من شعره إلى نثره ، ومن كلامه في الدنيا وأوصابها ومتاعبها إلى تخيله للآخرة ونعيمها الخالص الخالد ، وتأمل وصفه للحور العين ، وهن على ضربين : ضرب خلقه الله في الجنة لم يعرف غيرها ، وضرب نقله الله من الدار العاجلة لما عمل من الأعمال الصالحة . وهو يجعل ابن القارح يلتقي باثنتين من الضرب الثاني ، ويقبل على كل واحدة منهما يترشف رضابها فيهيجه ذلك إلى مابه ويقول « إن امرء القيس لمسكين مسكين تحترق عظامه في السعير وأنا أتمثل بقوله :

كأن المدام وصوب الغمام　　وريح الخزامى ونشر القطر
يعل به برد أنيابها　　إذا غرد الطائر المستحر

فتستغرق إحداهما ضحكا ، فيقول مم تضحكين ؟ فتقول فرحاً بتفضل الله ! أتدرى من أنا ؟ . . إني كنت في الدار العاجلة ، أعرف بحمدونة وأسكن في باب العراق بحلب ، وأبي صاحب رحى ، وتزوجني رجل يبيع السقط ، فطلقني لرائحة كرهها من في ، وكنت من أقبح نساء حلب . فلما

عرفت ذلك زهدت فى الدنيا ، وتوافرت على العبادة ، وأكلت من مغزلى ومردنى ، فصيرنى ذلك إلى ما ترى » وتقول الأخرى « إننى كنت توفيق السوداء ، التى كانت تخدم فى دار العلم ببغداد ، على زمان أبى منصور محمد أبى على الخازن، وكنت أخرج الكتب إلى النساخ » . ودع مافي هذا الموقف من التهكم واجعل بالك إلى إقباله الشديد على ترشف الرضاب ، وشرهه فى ذلك ، وإلى صرخته « إن امرء القيس لمسكين مسكين » وتكريره هذا اللفظ وما يشعرك به ذلك من تحرق الرجل ، الذى يكبح نفسه ، حتى إذا أمكنته الفرصة اندفع كالمنفجر ، ولا تنس تعلقه بالرضاب ورائحة الفم واختصاصه ذلك بالذكر .

أما الحور التى خلقها الله فى الجنة ، ولا تعرف الدنيا ، فتخرج لابن القارح من سفرجلة أو رمانة ، جارية « حوراء عيناء » فيسجد لله اعظاماً ، ويخطر فى نفسه وهو ساجد إن تلك الجارية ، على حسنها ، ضاوية (نحيفة) فيرفع رأسه من السجود ، وقد صار من ورائها ردف يضاهى كثبان (تل) ! ! عال فيهال من قدرة الله ، ويقول « يارازق المشرقة سناها ، ومبلغ السائلة مناها ، والذى فعل ما أعجز وهال ، ودعا إلى الحلم الجهال ، أسألك أن تقصر بوص هذه الحورية » فيقال له أنت مخير فى تكوين هذه الحورية كما تشاء ، فيقتصر من ذلك على الإرادة » وهنا أيضاً تهكم ولكنه مشوب بما لا يخلو من دلالة على التفات إلى الجسد ، وإلى مواضع معينة منه ، التفاتاً كان المعرى يزجر نفسه عنه فى حياته احتشاماً ونقمة .

فهو يسيء بها الظن كبشار ، ولا يرى لها عفة يحفظها عليها دين أو تأديب ، ولا يعتدها إلا ملهاة وغواية ، ولا ينظر إلى ما وراء أنوثتها وخورها وضعفها ، وإن كان مزاجه قد ذهب به مذهباً خلاف مذهب

بشار ، والنظرتان متفقتان فى النهاية ، وصادرتان عن أصل واحد ، وإن كانتا مرسلتين من نافذتين متباعدتين . وإنك لتحس مرارة الحرمان وألم الاضطرار ، إلى الكف عن التماس الملاذ ، فى شعر أبى العلاء ، كما يطالعك من شعر بشار حيوانية التسور إلى اللذائذ الحسية . وهو فرق أوجده اختلاف المزاج وتفاوت العقل . والعمى فى كلا الرجلين علة أولى . وقد كان أبو العلاء شديد الإحساس بعماه وإن له لهذا البيت :

إذا مر أعمى فارحموه وأيقنوا — وإن لم تكفوا — إن كلكم أعمى

وهو حسب المتأمل ولو لم يكن له غيره لكفى

ليلة

بين الصحراء والمقابر

هى ليلة حالكة متراكبة الظلمة ، وفى الصدر ضيق ، فأين عن صحوفى أعدى ؟ — صحرائى التى لا يلقط الطير فيها حبا ، ولا يجاوب فى صحرائى قلب قلباً ، ولا يغيرها صيف ولا شتاء ، ولا يدوم عليها إلا العفاء ؟ — كذلك كانت قديماً ، وكذلك أبقاها الله لى ! ولكم توهمتها وأنا أضرب فيها ، وأطوف فى فيافيها — وجهاً مستعاراً يبدو فيه « الوجه الأعظم » متقنعاً ! ولكم وقفت أدق رملها بقدمى وأفحص فيه بعصاى وأدمدم كالذى يريد أن يرقيها بالعزائم ليشفيها من هذا السحر الذى ضرب عليها وألزمها هذا المحل ! ولقد أعجب فى الليالى القمراء كيف لا تحسر وتنفض عنها هذه الرمال وتبرز للقمر الذى يناجيها ضوءه وينام على صدرها المتموج ، فى مثل وشى الرياض تنفح روحاً وريحاناً ، ويتداعى الطير على أيكها إعلاناً ، وتتهدل أغصانها فتسمو « وتمس الأرض أحياناً » ؟ ! ولكنى أتكلم كأنما هى قد رزقت الحس والإرادة !

* * *

وقالت الرمال لى وأنا أقتلع منها رجلى اقتلاعاً إذا أخبط فى الصحراء والريح تجذب أطراف الرداء : « بودى لو تماسكت حباتى ، وثبتت ذراتى ولانت مواطئ لقدميك ، ولكنى مثلك لا حيلة لى فيما قضى به ! » .

وهتف بى هاتف من جانب سمائها التى عفت الظلمة آى الهدى منها :

« ليتنى أستطيع أن أسدد خطاك ، وأنير لك الطريق الذى تغوص فيه قدماك ، وأريك غايتك قبل مذهبك ، ولكن لنا آيينا (١) لا نملك

---

(١) الايين القانون .

خلافه ، وقانوناً لا نستطيع تأويله واعتسافه ، وما نحن وأنت إلا سواء ، وهل نراك تملك من امرك كثيراً أو قليلا ؟ »

قلت : « كلا ! »

وانجابت طبقة من الظلمات المخيفة على الصدر وخلصت أنفاسى قليلا .

❋ ❋ ❋

وهبت الريح بى كالمجنونة فعدت ، وكأنى أمشى على ماء لجى يعلو ويهبط ، وسفت الرمال فى وجهى حيثما أدرته كأنما أرادت الحياة أن ترجمنى ، وتسابقت زمازمها إلى أذنى فوقفت مكانى لا أريمه وأغمضت عينى وقلت لنفسى : ماذا يصنع العود النابت فى الخلاء هبت به مثل هذه الرياح الهوجاء ؟ يلين أو ينقصف ! فملت إلى الأرض حتى سكنت الثورة وهدأت الفورة وجعلت أفكر فى هذه الحياة الغريبة التى يمتزج فيها الصراخ بالغناء ، ويختلط بها الألم والطرب ، وأقول لا شك أن الحياة عمياء صماء فليتها توهب البصر هنيهة لترى هذا الخليط من الحسن والقبح والخير والشر . وياليت من يدرى ماذا تصنع أذن ! أترى يثور بها الخجل فتعصف بكل شىء وتمحوه أم تأخذ فى إصلاحه وعلاجه فى صبر وأناة ؟ أما لو كنت أنا الحياة لتناولت ما أخرجت كفاى من طينة الأرض المحدودة ودككته وحطمته ثم ذروته لهذه الرياح !

فهمست فى أذنى الرياح : ما الحسن والقبح ؟ وما الحزن والسرور ؟ وما الخير والشر ؟ وما الاحساس والعقل ، والخصب والجدب ؟ والصحة والسقم ، واليأس والأمل ، والبكاء والضحك ؟

فرفعت رأسى حائراً وأدرت عينى واجما ثم أطرقت مفحما ثم نهضت أمشى ! ودلفت بى رجلاى إلى المقابر فتخللتها إلى جدث فيه شطر من ماضى ، وقعدت وأسندت ظهرى إلى حجارته وأنا أقول لنفسى (الموت

على الأقل راحة ، فليت الحادى يعجل بنا ! فقد سئمت الحياة ومللت النظر إلى وجهها الملطخ وثوبها المرقع . واشتقت أن أرقد هنا إلى جانب) ..

فخلص إلى صوت من جانب القبر أن (لا !)

قلت كيف لا ؟ واستدرت حتى واجهت أصواء القبر .

قال الصوت : لا على التحقيق ! إن لى هنا سنوات لا أعلم عددها ، ولعلها أقل مما توهمنى وحشة الوحدة التى تطيل أيامى التى صارت كلها ليالى ، أو لعلها كثيرة فما أدرى وقد حجبت عنى الدنيا . ولو كان المرء يموت مرة واحدة لقلت لك صدقت . ولكنه يموت مرة كلما نسيه واحد من الأحياء ، ويشتمل عليه الفناء شيئاً فشيئاً . وأنت — على الأقل ، تذكرنى فأبقى بذكراك ، فلا تسلمنى إلى العفاء بموتك . ولسنا نألم الرقاد هنا ، وإن كانت ظهورنا توجعنا أحياناً من طوله ، ولكنا نألم فتور الذكرى عنا واشفاءنا على التلف الأخير ، وههنا فى قبرى — فى حجرة أخرى — جد أعلى لى ، مسكين مسكين قد استوفى ميتاته جميعاً ولم يبق منه شىء . وليت أدكاريه ينفعه ! إذن لرددت إليه بعض الوجود ولكن هيهات ! إنما يجدى الذكر ممن فوقها دون من هم فى جوفها مثلنا

قالت (ولكن إذا تعلقت بالحياة فلا معدى عن إجابة دواعيها أفلا يسؤك ذلك ؟)

قال الصوت : (كلا ! سيان عندى أن تفى لى ولا تفى ، ومن العبث أن تتكلف لى الحفاظ فإننى بعد أن مت لا يسعنى أن أوليك الشكر الذى تستحقه أو تنتظره ، ولا ألتفت إلى وفائك أو غدرك ، وإني لأدرى فوق هذا ، إنك لا تذكرنى لذاتى بل لما طابت به نفسك على عهدى ؛ فافعل ما بدا لك ولا تعن نفسك بى من هذه الناحية ، ولكن أبق لى رقعة صغيرة فى زاوية من ذاكرتك أفيد بها عذوبة البقاء)

قلت : فإذا نسيتك كغيرى ؟

قال الصوت : إذا نسيت ؟ آه ! ولكن ما لنا ومالم يقع ؟ دع هذا إلى أوانه ، وعسى أن يكون بعيداً !

قلت : حسن سأحيا من أجلك . وأتقى المهالك أكراما لك وضناً بك أن تلحقى الأموات جداً !

قال الصوت : اتفقنا . فإلى الملتقى !

فسرت فى جسدى رعدة خفيفة ولم يسرنى أن تقول (إلى الملتقى) ! ونهضت عن القبر ممتلئاً رغبة فى الحياة ، وضناً بها وحرصاً عليها ، وعدت أدراجى إلى دارى خفيفاً كأنما حططت عن كاهلى وقراً . وجعلت أقول فى الطريق : (نعم سأحيا من أجلها !)

ولما أدرت المفتاح فى الباب همس فى إذنى الشيطان اللعين « تقول من أجل من ؟؟ » وقهقه !! فغاظنى ذلك فأشحت بوجهي وأسرعت فدخلت وأغلقت الباب فى وجهه !! ثم صنعت هذه الأبيات وألقيتها إليه من النافذة

* * *

(هاتف من جانب القبر)

جمالك ! لا تأسف على ولا تأسى
فإنى تحت الأرض لا أحفل الحبسا

طوانى الردى عن ناظريك فجـــاءة
وما كان ظنى قط أن أسكن الرمسا

أرانى الصبى ، شمسى ، بعيدا مغيبها
فسرعان ماولى النهار وما أمسى !

وكنت سرور العين والأنف والحشى
فقد صرت أو ذى العين والأنف والنفسا
فدع عنك ذكرى إنه ليس نافعى
وسيان عندى أن تفى لى أو تنسى
ولا تتجشم لى الحفـــاظ فإننى
وقدمت ، لا أوليك شـــكراً ولا حسا
وأدخل إليك الشمس من كل كوة
فما يتملى العيش من يحجب الشمسا
ستسليك عنى كل زهراء ناهـــد
وإن بقيت ذكراى تهمس بى همسا
فما أنت بالبـــاكى على وإنمـــا
على فقد ما قد كنت طبت به نفسا !

ايحاء التمثيل

من رأى أفلاطون ، فيما وضع على لسان أستاذه سقراط ، أن الحكاية تنشىء العادة . قال « أو لم تشاهد أن الحكاية ، سواء أكانت تقليداً للحركات البدنية أو نبرات الأصوات أو أساليب التفكير ، إذا واظب عليها المرء منذ الحداثة ، تحور عادة وطبيعة ثانية ؟ » .

وكانت أدوار النساء فى ذلك العصر يؤديها الرجال فعاب سقراط ذلك وزجر الشبان الشرفاء عن « محاكاة » المرأة ، فتاة كانت أو عجوزاً وسواء أكانت تتنقص رجلا أم تتمرد على الآلهة أو تكابد المصائب والآلام والأوجاع . وهم (أى الشبان) أحق بأن يردعوا عن تقليد امرأة تعانى مرضاً أو حباً أو وضعاً » .

وأما أدوار الرجال فليس يجوز فى رأى سقراط لمثلها تقليد الأرقاء أو الجبناء أو غيرهم من الناس « حين يشتم بعضهم بعضاً أو يركبه بالمجون أو حين ينطقون بالبذاء والفحش أو يقترفون من المعايب فيما بينهم أو ضد غيرهم ما اعتاده أمثالهم بالقول أو بالفعل . ومن رأيى أيضاً أنه لا ينبغى لنا أن نعودهم أن يحاكوا المجانين فى كلامهم أو أفعالهم لأنه إذا كان من الصواب ألا تنقصهم الدراية بالمجانين والأشرار من الرجال والنساء فليس من الرأى أن يقتدوا بهم أو يقلدوهم » .

***

هذه خلاصة وجيزة لرأى سقراط ، أو أفلاطون تلميذه على الأصح ، فيما تجوز ومالا تجوز محاكاته ، وما يحسن أن ينهى الشبان عن تمثيله ويزجروا عن تقليده ، والعلاج عنده أن تكون الرواية مزيجاً من التمثيل

والقصص ، وأن يقتصر التمثيل على الأدوار التي تنطوى على النبل والسمو وما هو من ذلك بسبيل ، ويذهب القصص بالأدوار الوضيعة ، وواضح من ذلك أنه يرى أن لتمثيل الدور مرة بعد أخرى أثراً فى نفس من يؤديه . وليس يعنينا هنا علاجه الذى وصف ليصون للجماعة فضائل نفوسها وليوقيها أسواء التمثيل مع استبقاء ما يسعه استبقاؤه من مزاياه المستفادة من الحكاية ومن الشعر فيه ، فإنها طريقة للتوفيق لاسبيل إليها فى هذا العصر الذى لا شك أن نطاق التعاطف الإنسانى فيه أوسع وأرحب منه فى عصر أفلاطون ولقد كانت عناية أفلاطون بتربية ما نسميه الآن (السوبرمان) ومن أجل هذا كان يجب أن يوقيه ما يخشى أن يفسد عليه صورته التى رسمها له فى خاطره وما عن قلة إجلال لأفلاطون أن نعجب (لسوبرمان) لا يخرج إلى الدنيا إلا فى مثل صوب النبات أو فى بيوت من الزجاج ترد عنه عادية الرياح والقر والأمطار !! وماذا عسى أن يبلغ مناعته ومن الجلد والقدرة على احتمال الحياة ومغالبة صروفها وفتنا وبوائقها ؟

وما لهذا نكتب . وإنما الذى نريد أن نقوله هو أنه لا يخالجنا شك فى أن للتمثيل أثره القوى فى نفوس أهله رجالا كانوا أو نساءا ، ومعلوم أنه ليس كل ممثل بصالح لكل دور ، وأن بعض الأدوار هى فى أيدى بعض الممثلين أنجح ، ونحسب أن مما هو فى حكم البديهى أن الصفات البدنية وحدها — من طول أو قصر ، وضالة أو جسامة ، ووسامة أو دمامة وسائر ما يجري هذا المجرى مما يتعلق بالصوت والنظر — ليست كل ما يتطلبه أداء الأدوار المختلفة ، بل أن القدرة على استعارة الشخصية الروائية وإفراغها على النفس والجسم ، تستدعى استعداداً وتحتاج إلى وجود مقدار من التناسب ودرجة من التطابق . وليس معنى ذلك أن دور الخسيس لا يجيد أداءه إلا الخسيس من الناس بطبعه وفطرته ولكن

معناه أن أصلح الممثلين له أقدرهم على فهمه وعلى الإحاطة بجوانبه وعلى سهولة التسرب فيه . ومن هنا يسعك أن تقول إنه ما من ضرب من التمثيل يوفق المرء فى أدائه إلا وثم مقدار من التقارب بين هذا الضرب وبين لابسه .

وما أظن بالممثلين الذين قد يطلعون على هذا الفصل إلا أن بعضهم سيحمى من ذلك أنفه وينزو فى رأسه الغضب على والمقت لى ، وما أحب أن يسوء أحداً كلام لى فى هزل أو جد ، ولكن من العسير على أن أصدق أن امرءاً يحسن ما لم يركب فى طبعه ذرة من الاستعداد له ، وقد يعزى هؤلاء ويكسر سورة غضبهم أن أقول لهم إن الناس فى الاستعداد للخير والشر متقاربون على كثرة ما يتفاوتون وإننا جميعاً من طينة الأرض « وأين عن طينتنا نعدى ؟ » كما يتساءل ابن الرومى ، إن كان مثل هذا الهراء البديهى يعزى نفساً أو يطفئ غضباً !

كذلك من العسير أن أصدق أن يظل الممثل يستعير نوعاً من الشخصيات معيناً وأن يفعل ذلك شهراً بعد شهر وعاماً فى أثر عام أن يخرج بعد ذلك كما دخل . وألا يكون من آثار ذلك توكيد بعض الخصائص فيه أو بروز بعض السمات ، عرفت فيمن عرفت من الممثلين المرحوم أحمد فهيم أفندى وكان ذلك فى أخريات أيامه فلفتنى فيه من صوته وهيئته إذ يمشى أو يقف أو يلتفت أو يحدق ببصره مشابه مما يؤدى على المسرح من أدوار الملوك والنصحاء الأمناء المخلصين ومن إلى هؤلاء وكثيراً ما تمنيت لو أنى كنت عرفته — رحمة الله عليه — قبل أن يبلغ أثر التمثيل فيه هذا المبلغ . وعلى أن من التعسف إن يلجئنا ما نقدر أن يلقانا به بعض القراء من إنكار الدهشة — لا التفكير — إلى سوق الأمثلة الفردية وهى مما لا يدخل فى الطوق أن يسوق الكاتب منها الكفاية .

وبحسبنا وبحسب القراء أن نرتد جميعاً إلى الأصل ، وهو « الايحاء »

ولا يتسع المقام هنا للإسهاب فى بيان وقع النفس في النفس ولكنا ، إيضاحاً لغرضنا نقول ، أن كل حركة باعثها الإرادة وأن الإرادة تفضى ببواعثها على الحركة إلى الجهود المدركة للفكر أو لغير المدركة من الجانب الإحساسي . فإذا كان مصدر هذه الجهود التي تغزي الإرادة بالنشاط ليس ذهن الفرد نفسه بل ذهن أجنبي عنه وبعبارة أخرى إذا صارت إرادة المرء طوع رأى سواه أو عاطفته فإن ما يصدر عن أولها يكون موحي به إليه . وقد فسر نوردا وهذا الأعداء في فصل طويل ممتع سبق به كل علماء النفس ويلخص رأيه أو نظريته فى أن « الإيحاء هو نقل الحركات الذرية من ذهن إلى ذهن على النحو الذى تنتقل به اختلاجات سلك إلى سلك غيره بجواره ، أو كما يفضى الحديد المحمى إلى آخر بارد بحركات ذراته . ولما كانت كل الآراء والخوالج تنطوى على حركات لذرات الذهن فإن مما يستتبعه نقل حركات الذرات أن تنتقل الآراء والخوالج معها »

وأظهر ما يكون ذلك فى التنويم المغناطيسى . فإن المنوم يستطيع مثلا أن يقول للنائم « غداً صباحاً فى الساعة الثامنة ستمضى إلى منزل فلان بشارع كذا وتضربه بسكين مطبخ تحملها معك » وهو مثل متطرف ضربه نوردواو لمثل ما صحت التجربة فيه . قال : « ثم يفيق المنوم ويمضى إلى سبيله وهو لا يعى شيئاً مما جرى حوله فى نومه ، وقد لاتكون له معرفة ما بفلان هذا ، ولعله أيضاً لم يمش قط بشارع كذا ، وعسى أن لا يكون قد آذى فى حياته ذبابة . ولكنه فى صباح اليوم التالى يتناول سكين المطبخ — وقد يسرقها إذا كان لابد من ذلك للحصول عليها ويذهب إلى شارع كذا ويقرع باب فلان هذا فى الساعة الثامنة تماماً ويوشك أن يضربه لولا أن فلاناً يكون قد أنذر من قبل بالتجربة وأحيط بها خبراً فاتخذ لها ما ينبغى من الحيطة »

وقد قلنا إن هذا مثل فيه شيء من التطرف لأن الثابت أن الإيحاء

لا يبلغ هذا المبلغ من القوة إلا فى المرضى دون الاصحاء ، وفى الضعفاء دون الأقوياء . وواضح من هذا المثل أنه لكي يتخذ الذهن لنفسه حركات ذهن آخر ويعدى بآرائه وعواطفه وبواعث إرادته يجب الا يكون هو مجالا لحركات من ضرب آخر قوية أو أقوى من تلك التى يراد نقلها والأعداء بها وبعبارة أخرى ينبغى ألا يكون مجداً فى التفكير ومثال ذلك السلك المهتز الذى اشار إليه نورداو ، لا يثير فى سلك آخر مثل اهتزازاته إلا إذا كان هذا الآخر ساكنا أو ضعيف الاختلاجات . فعلى قدر ضعف الذهن يكون تأثره بحركات ذهن غيره . وعلى قدر قوته ونشاطه تكون مقاومته. على أن حركات أذهان عدة — ولو كانت ضعيفة — إذا اجتمعت وتجاوبت باحساس واحد قد تكون أقوى من حركات ذهن واحد قوى ، ومن هنا كان تاثير الجماعة المحتشدة فى الفرد وحملها إياه على تيارها على الرغم من مغالبته لفعلها فى نفسه ، ومن هنا أيضاً تكون ضيعة العقول القوية فى المجالس النيابية واشباهها إذازخرت نفوس الأكثرية بعباب إحساس واحدأو متقارب.

والتمثيل حين ترجعه إلى الأصل ، استيحاء لما يدل عليه الكلام ، وقوامه إخلاء الذهن مما يشغله فى العادة واحلال الحالة النفسية التى يراد استعارتها محله او بعبارة اخرى إنامة العواطف والخوالج والآراء الشخصية على قدرما يستطيع المرء أن يفعل ذلك والاعتياض منها آراء وعواطف وخوالج أخرى ، وتمكين هذه المستعارات من استغراق النفس باخلاء المجال لها، وهذه أصلح الحالات النفسية للايحاء ، وهى قريبة شبه بحالة النائم نوماً مغناطيسياً حين يكون الجهاز العصبى بحيث لاتؤدى ذرات الذهن من الحركات إلا اضعفها وحين تكون من اجل ذلك غير مستقرة التوازن فيسهل بايسر باعث دفعها إلى حركة يعينها نوع الباعث وقوته . فالممثل الذى يؤدى الدور مرة بعد أخرى يقع تحت تاثير الشخصية التى يستعيرها بضع ساعات كل ليلة ويكون استعداده لتقبل الإيحاء منها اقوى على التكرار كما يكون النائم أشد خضوعاً وأعظم طواعية فى يد منومه على الإعادة .

وليس من الضروري أن يكون المرء أخبر الناس بنفسه وأقلهم خديعة في أمرها ولولا ذلك لكان الممثلون أنفسهم أقدر على بيان الأثر الذي تخلفه أدوارهم التي يؤدونها وأعرف بمداه . ولكن المرء أسرع في العادة إلى إنكار الإيحاء لتوهمه في أول الخاطر أن الاقرار به يغض منه وإن كان متبادلا شائعاً وكان فعله ظاهراً في التوافه والصغائر ظهوره في الأمور الجسيمة . وكيف تفسر عدوى التثاؤب وكون كثرة المؤاكلين أشحذ لشهوة الطعام ، وما إلى ذلك إذا لم تفسره بالايحاء .

ليلة

من أمتع ما مر بى فى هذه الحياة ، التى لا أراها ممتعة ولا أحب أن تطول أو تتكرر ، ليلة قضيتها بين شراب وسماع . فأما الشراب فلعل القارىء أدرى به وأخبر ! وأما السماع فقل من شجى به كما شجيت فى ليلتى تلك ! أى والله ! وما زلت إلى الساعة ، كلما خلوت بنفسى ، أغمض عينى وأتسمع وأحاول أن أبتعث ذلك الصوت البديع الذى هاجنى إلى ما بى كما لم يهجنى صوت سواه ! وقد أعجب لما يصب فى الأذن أين يذهب ؟ وربما أثارنى هذا العجز عن إحياء صوت بأكثر من تصوره فى ضمير الفؤاد ، وقد أغالى فى إكبار هذه الثروة الصوتية وأتمنى لو رزقت شيئاً منها بكل ما لى — لو أن لى شيئاً ! — ثم أعود فأسخر من نفسى وأضحك من أمنية يستخفنى إلى إنشائها الطرب العارض ثم أسخر من سخرى وأقول لنفسى فى حدة « أولا يسر الإسكندر وقيصر وسليمان أن ينزلوا لمثلى عن نصف ما أحرزوا من مجد لو أنه وسعنى أن أخول كلا منهم مما أضفى الله على من الحياة مافيها ، ليلة واحدة كهذه التى نعمت فيها ؟ ؟ » نعم ! ولكنهم قد شملهم ظلام أو ركوس على حين أحيا وأطرب ! وما أدرانى أنهم نعموا بمثل هذا الصوت ؟ ؟ أمن أجل أنهم كانوا ملوكا أو أقوى وكان لهم سلطان وبأس وبطش ، يلزم أن يكونوا قد سعدوا بغناء كهذا ، يخف منه حليم .

« راجح حلمه ، ويغوى رشيد » ؟ ؟

* * *

وكانت السماء قد جاد الأرض منها هاضب ثم أقلعت وصفا الجو ورق النسيم فنهضنا إلى مائدة مدت تحت أعين النجوم المتلامحة ودرنا عليها نأكل

ونشرب مالا يحسب الحاسب . وأرسل كل منا نفسه على سجيتها وورد من صاحبه « غير المكدر المطروق » وانبسط إليه غير باخس واجباً ثم أخذنا مجالسنا للسماع وآذاننا العود « بالاحسان وإيذان صادق الخبر » وأطفنا ببكر من الألحان لم يفض لها خاتم من قبل ، ثم رضينا من منظر بمسمع وانطفأ النور ، وهفت إلى أسماعنا الأنغام من وراء ستور الظلام .

واهاً لذلك الغناء من طبق على جميع القلوب مقتدر(١)
يملأ روحاً فؤاد سامعه ويصطلى حره من الفرر
كأنه قالب لكل هوى فكله والمنى على قدر
لا خير فى غيره ، وهل أمم من شارب الراح شارب السكر ؟

وكأنى لم أكن أسمع بل أسقى من رحيق الجنان ، وكأنه لم يكن غناء مصوغاً من شجى القلوب بل من شعاع العقول ، فلم تطر قلوبنا وحدها بل لحقت بها عقولنا ، ومضى الصوت على دله بتوحده يجيش نفوسنا ويعصف بسكونها ويزخر أمواجها ويستثير كوامنها ويرسم على الوجوه آثارها ، وغبت عن حاضرى برهة كررت فيها — ولا أدرى كيف ؟ — إلى لحظة من الماضى المغيب الذى استقر فى زاوية مظلمة من الذاكرة ، فأبصرتنى واقفاً مرة أخرى استودع الله لى أحب الناس إلى وأعزهم على وقد امتدت الكفان وتصاغتا عن أحنى عاطفة وأوجع إحساس ، وتدانى الوجهان ، واختلجت الشفاه وهمت بالتلاقى فى قبلة حارة طويلة ، ثم تباعدت فى فزع كأنما كانت ترقبنا عين ، ولا رقيب هناك ، وثبت إنسان العين بعد أن حرمناها قبلة فيها برد العاطفة المضطرمة وازدجرت عنها الشفاه ازدجاراً أضاف إلى ألم الحرمان سخر القدر !

---

(١) الأبيات لابن الرومى .

وتشبثت هذه الصورة بالارتسام أمام عينى وأنا أصغى إلى ذلك الغناء الساحر الذى يسمو إلى السامعيه مبارزاً ويستكبر أن يعتصم بمساعد فيخفت حتى العود ، ويأبى أن يضاعف تأثيره بالنظر فيضوى حسن الوجه إلى الظلام !

وهكذا أمتعنا عبد الوهاب بغبطته فى ليلة كانت كلها سحراً . وردنى بعدها بغير ذى أذن إلى كل نغمة من سواه ، وغير ذى صور إلا إلى فتنة من هوى فنه وشجاه ، ولولا أن يعد ذلك جحودا ولؤماً لتجاوزت عن ذكر اسمه فإنه أحلى عندى وأوقع فى نفسى أن أجرد غناءه من صورته الآدمية على حسنها النرجسى ، وأن أتصوره أبدا هوى سابحاً وروحاً هائماً وصوتاً هافياً يشرب بالأذن صرفا ولا تشغل العين بمونق زهره ويستريح الفؤاد إلى نسيمه ويتخلى من الشجى بحب مجتهره ، ويأنس الصدر إلى هديله وينجو بالقلب من حوره ، فعسير على طين ابن آدم أن يجشم احتمال الفتنتين جميعاً .

الخطابة والكتابة

زارنى مرة رجل كالعصفور ! ولست أعنى أنه صغير فى رأى العين أو العقل ، ولكنما أعنى أنه فى حديثه كالفزع ، لا يكاد بواقع موضوعنا حتى يتركه إلى غيره ويثب عنه إلى سواه ، . . وسألنى فجأة وبلا مناسبة تقتضى ذلك : « ما هو أحسن تعريف للكاتب ؟ » ومن عادتى حين أجالسه أن أنظر إلى شفتيه دون سائر وجهه ، وما رأيته قط يهم بأن يدير لسانه فى فجوة فمه إلا توقعت أن يبدهنى بجديد ، ففى مجلسه امتاع التنقل وفى حديثه لذة المفاجأة ولكنه يتعب الجليس بما يكلفه من الجهد فى التماس الصلة التى فى ذهنه بين المسائل التى ليس بينها فى الظاهر أو هى علاقة . . فلما ألقى إلى سؤاله ابتسمت ودعوت الله أن يلهمنى الجواب قبل أن يطير إلى موضوع آخر ! وذكرت قصة « الجريمة والعقاب » لصاحبها دستيوفسكى ووصف السكير فيها وكيف كان يعب فى « الفودكا » ثم يروح ينثر الأسئلة شمالا ويميناً ولا ينتظر الجواب ! وعجبت لهذا الصاحى الذى له طبيعة ذلك السكران ! واشتاقت نفسى أن أداعبه فقلت « أتريد جواباً لسؤالك ؟ » .

قال : وهل فى ذلك شك ؟ إذن فيم أسألك ؟

قلت : فإن لى شرطاً ؟

قال : ماذا ؟

قلت : أن لا تطالبنى بإيضاح .

فأطرق قليلا ثم رفع إلى وجهاً كالدرهم المسبح ، ونظر إلى بعينين مظلمتين كالكهفين وقال بلهجة المستسلم إلى قضاء الله وقدره « قبلت » .

فقلت ، وتكلفت السمت والوقار والجد ، وزويت ما بين عيني ، وغرزت عنقي بين كتفي ، كأنما أوشك أن أفضي إليه بخبر ضخم ، أو أنطق بحكم ، : « الكاتب ، ياسيدي ، هو الذي لا يكون وحده حين يكون وحده » ! !

فحملق مبهوتاً ، ثم هز رأسه يمنة ويسرة ، ونهض عن كرسيه ومد إلى يده في صمت ، ومضى عني حاسباً أني أسخر منه ! وقد انقضت سنوات طويلات ، ولكن صاحبنا لايلقاني بعدها إلا صامتاً ولا يناولني يده إلا مطرقاً ولا يغتفر لي هذه الدعابة الخفيفة التي ركبته بها قديماً !

كان هذا منذ سنين كما قلت ، ولا أدري ماذا أذكرنيه الآن ، غير أني لا أرى اليوم فيما قلت له حينئذ شيئاً من الهزل ولا أعد كلمتي تلك التي أسخطته إلا جداً صرفاً وإن لم أكن أعني ما أعني الآن ، فقد صارت الدنيا في نظري مدرسة حقيقية سوى أنها سخيفة ؟ يتلقى المرء دروسه فيها حين يكون بين الناس سابحاً معهم على متن الحياة يصارع أمواجها ويغالب أثباجها ، حتى إذا كر إلى الشاطىء وارتمى على رماله ليريح أعضاءه ويستجم لخوض العباب مرة أخرى شرع يفكر فيما لقيه ويجيل نظره فيه كالتلميذ ، بعد أن ينصرف عن المدرسة ، يقلب صفحات كتبه ودفاتره ليستظهر ما فيها ويثبته في ذاكرته ، ولكنها كما قلت مدرسة سخيفة يقضي فيها المرء حياته ليتعلم كيف يعيش ، وتتصرم أيامه وهو لم يحذق الدرس ولم يفز بالجائزة !

ولا شك عندي في أنه لا خير فيمن يحس حين يكون وحده أن حوله فراغا . ألا يهتف به هاتف أو يطوف به طائف من ماض ؟ أو ينجم عنه في سماء نفسه نجم من أمل أو فكرة أو خاطر أو خيال ؟ ؟ إنه إذن ليس سوى طفل كبير كل حيويته في أعضائه . فلندعه يبحث عن ترب له يلاعبه !

كان « بيكون » رحمه الله ، أو صنع به ما شاء ، يقول « إن بعض العقول ملائم لما يمكن إرساله دفعة واحدة أو فى زمن وجيز ، والبعض يخلق مناسباً لما يبدأ بعيداً ولا ينال إلا بالسعى الطويل » والطراز الأول هو طراز المحدثين والخطباء ، والثانى نمط الكتاب ، ولقد سمعت فى حياتى خطباء كثيرين لايزال بعضهم ينعم بالحياة وبحنجرته ، ولكن أقواهم وأعلاهم لساناً وأبلغهم تأثيراً كان كالطبول التى قالت القردة عنها فيما روى ابن المقفع فى كليلة ودمنة « لعل أفشل الأشياء أضخمها صوتاً وكان يخيل لى إذ أسمعه يخطب الجماهير كأن فى وجهه زوبعة ثائرة أو بركاناً فائراً ، وكأنه حين كان ينهض ليتكلم « بلاس » الذى حدثتنا الأساطير أنه خرج من رأس « جوبيتر » شاكياً مستعداً تام السلاح . وكان كلما مضى فى كلامه يعلو ويبهر كالنار المندلعة ، ويقنع السامعين ، لا بالحجة والبرهان ، بل بقوة انتفاء شكلة فى نفسه ، وكان يجزم ولا يتردد : ويبت ولا يتلعثم ويقرر و لا يناقش ، ويعد ما شاء أقضية مفروغا منها ومسلماً بها ، وينزع المقاومة بكلمة أو نظرة أو إيماءة أو ابتسامـــة أو دقة على المنضدة ، كأنما كانت لألفاظه وهو يطلقها أظافر وأنياب حداد تمزق الظلم الذى قام متمرداً عليه وتبعثر أشلاءه للوحوش والكلاب ، وإذا ذكر بلاده وفجائعها خلته « أنطونيوس» واقفاً على جثة « قيصر » ليدفع حجارة رومية إلى الثورة والانتقاض ، وكانت عينه تلتمع بنور الوطنية وصدره يعلو ويهبط جائشاً بالعواطف العامة كالعباب الزاخر . ثم كنت أتلو خطبته فى المساء أو الصباح فاعجب لتفهها وفراغها وخلوها من كل روعة أو جمال وأكاد أقول إنها غير ما سمعت أذناى منه . لأنها ليست سوى الرماد الذى صارت إليه النار التى كانت تزغرد فى مسمعي ولأن الإشارات المقوية ليست هنا ، ولا الصوت الفاتن الذى يسحر المرء عن نفسه ، ولا النظرات الموحية ولا الوقفة الناطقة ولا الجماعة المتعاطفة المعدية .

ولعل أقوى الخطباء فعلا فى نفوس الجماهير وأبلغهم تأثيراً لايكون إلا أشبههم بها وأقربهم إليها وأقدرهم لذلك على النزول إلى مستواها ، وليس فى وسع الخطيب إذا شاء أن يبلغ من السامعين ما يشتهى ، أن يجاوز السطرح أو يهوى إلى الأعماق ويطلب الأغوار ، وإلا جاوز محيطهم وحلق فوقهم وغاب عن نظرهم فلم يلحقوا به . وتأمل ما تظنه أقوى خطبة سمعتها وقل لى من أى شيء تراها مبنية ؟ أليس قوامها الألفاظ المبتذلة والعبارات المذالة وما ألفت الجماهير أن تسمع وتتأثر به وتنفعل له ؟ وهذه المبتذلات أفعل بألباب الجماهير لأنها لا تكلفهم مشقة ولا تدعهم حيارى ولا تتركهم فاغرين أفواههم كالبلهاء ، ولا يحول دون وقوعها فى نفوسهم حائل من تعويص أو عمق أو دقة أو سمو خيال أو لطف تصور ، ولأنها تحرك المزاج العام وتشبه ولاتصدمه ، ومن هنا لم تكن بالخطيب حاجة إلى العمق أو الابتكار وكلما كان أدنى إلى طبقة الأوساط العاديين كان هذا خيراً له ولهم وأجدى عليه وعليهم فإن حائك الجيش كما يقول « نورداو » لا يفصل ثيابه على قد جندى ممشوق القوام من معارفه بل على الطول المتوسط ويقول نورداو ، وليس أصدق مما يقول ، « تصور أربعمائة من طراز جويته ، وكانت ، وهلمهولتز وشكسبير ونيوتن ، وإضرابهم محشودين فى مكان واحد ليبحثوا شأناً عملياً ويبدوا آراءهم فيه ! قد تختلف خطبهم عن الخطب التى تلقى فى المجالس النيابية — وحتى هذا مشكوك فيه — ولكن ما يخلصون إليه من النتائج ويتفقون عليه لا يتعرض لمثل هذا الاختلاف . فلماذا ؟ لا لسبب سوى أن كلا منهم — فضلا عن خصائصه التى تفرده وتكسبه شخصيته الممتازة — قد ورث خصائص الجنس التى يشاركه فيها ، لا زملاؤه المحشودون معه وحدهم ، بل كل نكرة من نكرات الشوارع أيضاً — ونقول بعبارة أخرى أن بين الناس العاديين شيئاً مشتركا لا نكاد

تتفاوت قيمته نرمز له بهذا الحرف «ا» وأن الأفراد الممتازين يجمعون بين هذا المشترك وشيء آخر خاص يختلف باختلافهم وينبغي أن نرمز له بحرف مختلف في كل حالة مثل «ب» و «ج» و «د» الخ . والآن فلنفرض أن أربعمائة من العبقريين اجتمعوا فإن النتيجة اللازمة تكون أن يجتمع عندنا أربعمائة «ا» وباء واحده وجيم واحدة ودال واحدة وهكذا . فلا يسفر ذلك إلا عن أمر واحد هو أن تحرز الألفات الأربعمائة نصراً مبيناً على الباءات والجيمات والدالات المفردة أى أن ما هو مشترك بين الجماعة يتغلب على ما هو من الخصائص اليتيمة التي لم تتأم . ولقد تعلمنا منذ زمن بعيد في المدارس أن المختلفات لا تقبل الجمع ، وهذا في الواقع هو السبب في أن من الممكن أن نتصور مجتمعاً من الأفراد العاديين لا من الآحاد النوابغ . ومن المستطاع — إذا طرحت الأمر للتصويت — أن تحصل على رأى أغلبية في مذاق توابل الكرنب ! أما في قيمة نظريات الحياة فلا سبيل إلى ذلك . والأرجح في الاحتمال — إذا أحصيت الأصوات على هذه النظريات — أن تفوز كل نظرية بصوت واحد هو صوت صاحبها !!»

ولكن للكاتب شأناً مختلفاً جداً ، عليه أن ينضج ما يريد أن يفضى إلينا به ويطلعنا عليه وإلا كان لا شيء . والوقت أمامه فسيح لتلمس المواد والعبارة عما يدور في خاطره ويتمثل لخياله ، والقراء مستعدون أن ينتظروا ويصبروا حتى يهتدى إلى ما يبغى ويوفق إلى ما يشتهى ، وهو مطالب بأن يؤدى ولا يمطل دينه للحقيقة والطبيعة . إذ كان لا يخاطب نفوس الجماعة المتعاطفة بل عقل الفرد ، والناس ينظرون إليه نظر التلميذ إلى المعلم لا الظهير إلى الظهير فمن حقهم أن يتقاضوه الدقة والعمق وموافقة الصواب وتحرى الحقيقة وحسن البيان وعلو اللسان وأن يكشف لهم عما أفاده الدرس والتحصيل والنظر وما ذخر على الأيام

من كنوز الفكر وأن ينصف نفسه وعقله ومواهبه وأن يجيل لحظه فى سماء فكره لا فى وجوه الجماهير ، وليس مايطلبه الكاتب على طرف اللسان أو حد القلم بل هو ملفوف فى طيات القلب ومنقوش على صفحات العقل طبقة فوقها طبقة ودونها طبقة يرفعها الخيال والفكر واحدة إثر أخرى ويلتمس لها العبارة التى تجاوها فى أحسن حلاها وأقواها .

وعسى من يقول : ولكن للخطيب مشجعاً كافيا من ثناء الناس عليه فى وجهه وتصفيقهم له وما يراه من الموافقة ويحسه من القبول ومايشهد من قدرته على حمل الناس على رأيه وليس كذلك الكاتب المسكين الذى يسهر الليل لمن ينامون عنه ويكد قريحته للناعمين بالراحة . فنقول نعم يأتى الخطيب من يصفق له ويهتف ، ويدخل السرور على نفسه أن يلمس أثر كلامه ويحس وقعه ويشهد ذلك بعينيه وبكل جارحة فيه . ولا شك أن الكاتب قد حرم هذا وما يجرى مجراه . غير أن هذا لا يضيره ويحسبه من التشجيع أنه أمين وفى للحقيقة والطبيعة وله قوة يحسها من نفسه ويحسها الناس منه .

ولقد كان هو قارئا قبل أن يكون كاتبا وليس يخفى عليه لا من الغريب عنه ما يجده القارىء من المتعة وما يفيده من الغبطة . والخطابة فن أجوف إذ اعتبرت القيمة الحقيقية للكلام لا التاثير الذي تحدثه والوقع الذى يكون لها فن حقها أن يكون الجزاء عليها التصفيق الوقتى وما إليه من الأعراض الزائلة وفن الكتابة أسمى وأجل فجزاؤه من جنسه معنى سام لا مظهر خشن عامى .

سر غرفة ؟؟

أم وحي صورة ؟؟

لا أدري أحلم هو أم حقيقة ، ولكني سأقصه على القراء وأكل الفصل إليهم ، وأكبر الظن أنهم أقدر على ذلك مني أنا الذي أعيش بين الأشباح والطيوف ، وأغدو وأروح في حاشية منها وأستوحش إذا افتقدتها فأزورها وأستثير ها من مراقدها وأحف نفسي بها وأنقاد لها وأعاطيها التذكر والحديث حتى نثني جميعاً «كأنا قد تعاطينا المداما» ولكل واحد من الناس حياته الخاصة ياسيدي القارىء لك مجالس انسك ولهوك وسمرك وما شئت غير ذلك صاعداً ونازلا على جانبي المقياس ، ولي أشباحي لا أرتاح إلا إليها ، ولا أرسل نفسي على سجيتها إلا معها ، ولا تخلص أنفاسي إلا بينها ، ولا أستعذب سوى حديثها وإن كان مثله من غيرها حتيقاً بأن يثير الكبرياء ويكوي الغرور من الأزراء ولكم قالت لي ، وأنا اخبط في الصحراء معها ، «أتعرف هذا الوجه الذي يطالعك من الظلام ؟» فانظر إلى حيث تشير فلا تأخذ عيني شيئاً غير الظلمة الدامسة فتقول لي «لا تحول نظرك عنه تستوضحه» فأغرز عصاي في الرمل وأتكىء عليها وأرسل لحظي إلى حيث تومىء فيرتفع مثل الاستار واحداً بعد واحد عن وجه لا معنى له ولا حياة فيه فأنكره وأثني إليها الرأس سائلا عن صاحبه فتقهقه وتجلجل ضحكتها في الفضاء وتقول «كيف لا تعرفه ؟» فأعجب لانكارها عجزي عن تذكر وجه كالصورة الميته ليس فيه ما يحرك الخاطر أو يماز به من المعارف عن مئات الألوف من أمثاله ، فتنطقه لي فلا أزداد به إلا جهالة وله إلا إنكاراً ، فتبسم ابتسامة السخر وتقول «لقد كنا نحسبه أشبه الناس بلك ! ولكن دعنا من هذا ولنتركه للظلام يحتويه فما هو بأهل لغير ذلك ! »

* * *

والآن إلى القصة ، إذا جاز أن تسمى كذلك ! . .

أقمت على ساحل بحر الروم أياماً ، وفى إحدى الليالى أبت إلى غرفتى فى ساعة متأخرة وقد أدارت رأسى مناظر الدنيا على ساحله ؟ ومن حقها أن تفعل ذلك بابن الصحراء وساكنها ؟ وكان الليل عاتيا .

كأن شياطين الدجى فى أهابه تغنى على زمر الرياح وتغرب

ففتحت النافذة وجلست أصغى إلى صوت البحر الجائش واستنشى ريحه ، فدخلت على بلا استئذان غادة فى حفل من الزينة دخول من هذا مكانه: ونزعت قبعتها والقتها على منضدة هناك وأقبلت على المرآة تصلح من ثيابها وتمسح شعرها وتلوى خصله الذهبية حول إذنيها وتفرقه على جانبى جبينها وهى تقول إذ تنظر إلى نفسها بادية فى صقال المرآة من قريب ومن بعيد وتصعد طرفها إلى صدرها وثدييها الناهدين الراسخين ونحرها الذى يضيئه عقد من اللؤلؤ ، وتصوبه إلى قدميها الصغيرتين وتكشف عن ساقها فى جورب بلون الجلد « من مبلغته إلى هنا الساعة ؟! إنى أتعقبه حيث يكون من الأرض ولا أدعه يفلت منى ، وقد أكون أدنى شىء إليه وهو لايدرى — إلى مباءات الحالمين ، وتحت الأشجار التى لايعشش فيها غير البوم ، وإلى سيف البحر حيث اللج يرمى بالزبد — ولكنى ، مع الأسف لا أستطع أن أناديه أو أدعوه أو أسمعه صوتى أو أشعره بوجودى وإن كنت منه كظله ! ! وقد يناجينى فيروى سمعى بنجواه ويطلعنى على ما كنت أجهل وما كان يطويه عنى جهده ويكاتمنيه ما وسعه الكتمان ، فأعجز عن جوابه إذ كنت لا أملك غير الاصغاء ! فياليت من يبلغه عنى ذلك ليعلم إنى ما زلت على وفئى الذى الزمنيه والذى لم أندم عليه ! وان تبرح مخيلتى قط تلك الليلة التى طال فيها بيننا الحوار وكاد يفضى إلى شر حال ، وكيف نهض عن كرسيه « هذا » وأنا قاعدة على سريرى ، وحدق فى عينى وأومأ إلى بسبابته وقال « ستفين لى على رغم أنفك هذا (وغرزت أصبعها فى المرآة) أتفهمين ؟ » فدفنت

وجهى بين كفى وانطلقت أبكي فما عبأ بى شيئاً ! فياما كان أقساه فى تلك الليلة ! ولما طال الأمر ولم تجف عبراتى صاح بى بصوت قوى « خير لك أن تنتهى عن هذه الحماقة التى لن تغنى عنك شيئاً ولقد صارحتك بعزمى ولو نقل هذا البحر بالغرابل ما تحولت عنه . وقد آليت أن أقتلع من بين جنبيك هذه الوساوس والحماقات بجذورها كما تقتلع النباتات الطفيلية ، ولو انتزعت معها أصول أحشائك ! وسترين أنى فاعل – بسوطى هذا وذراعى هذه، إذا احتاج الأمر إلى هذين ! » وقد فعل . . . ولكنى ذويت . حتى صرت إلى ما أرى ! » .

وتراجعت عن المرآة ووجهها إليها ثم أقبلت عليها ودارت أمامها ثم مضت إلى السرير فارتمت عليه برهة حدثتنى النفس فى خلالها أن ألوذ بالفرار ! والحق أقول إنى خفت جداً ! ولكنى جمدت مكانى ولم أستطع حراكا حتى لكأنى استحلت بعض ما فى الغرفة من أثاث !

ثم أعتدلت كالمفيق من غشية وجعلت تجيل عينيها فى الغرفة وتنفض كل ما فيها . غير أنها كانت نظرة من لا يكاد يرى . وعادت إلى الكلام بصوت مخنوق هاف أيقنت منه إنى فى أمان !

« نعم كانت ليلة داجية كهذه : عاصفة الرياح مثلها وكنا ضجيعين على هذا الفراش . غير أنى كنت لا أنفك أفلت من عناقه وأشيح بوجهى عنه كلما أهوى إلى بفمه وأمنحه جانب محياى دون صفحته . وأتقى أن تلتقى عيوننا أو أتلقى أنفاسه الحار بغير خدى . وأعيته الملاطفة وحز فى نفسه فتورى فاعتمد على كوعه وهو مستلقى إلى جانبى وألح على يستخبرنى عما بى وعن علة ما كان بادياً علىّ من الزهادة والسآمة ويسألنى ما لجفونى قد جفاها الغمض ويقول « ماذا يجول فى هذا الرأس الصغير ؟ أى هم يقض مضجعك ؟ »

فأقول مرائية « كيف يستضيفنى الهم وأنا إلى جانبك ؟ »

فيقول « أتراني أخلفت لك وعداً أو أسأت بكلمة أو إشارة ؟ لقد نحيت عنك ذراعي في جفوة لا يتوقعها الزوج بعد أسابيع من زفافه ؟ أتراك نادمة على زواجنا ؟ أم فاتك من هو خير مني وأحب ؟ أم خاب لك أمل أم ماذا ؟ قولي بالله ؟ صارحيني ! لا تخشي شيئاً ! دعي هاتين الشفتين الدقيقتين المطبقتين تنفرجان ! »

فأطبقت جفوني حتى لا أراه . ووضعت ذراعي على جبيني لأكثف الستر بيني وبينه ولبثت هكذا لا أنبس بحرف كالذي يريد أن يستغرقه حلمه — نعم كنت أحلم ولكن بغيره — وأسفاه ! بذاك الذي أقسمت له وأنا بين ذراعيه . وفمه على شفتي يوسعهما لثما أن لا أساكن سواه أو أبادل غيره القبلات حتى الممات . والذي لا أحتضن إلاه حين أطوق هذا الزوج ! . . فهممت أن أقول له « أسمع يا صاحبي ! إنك زوجي . . . لا أنكر ذلك ، ولو أنكرته لما أجداني الانكار شيئاً ، ولكنه كان لي صاحب — أو حبيب إذا شئت وأبيت إلا أن تسمي الأشياء أسماءها كيفما كانت — وهو ممن خلقوا ليعشقوا ، ولا تكاد تراه حتى تتعلقه وتهواه ، ولكنه فقير لا يملك أن يبلغني من الدنيا مناي ، وليس يخفى عليه أني مخلوقة لنعيم الغنى لا لخشونة الفقر وذلة الفاقة ومراقعها ، وأن صبري على الاقتار عسى أن يكون عسيراً فجعلت من أجله أدافع الخطاب عن نفسي وأتجنى وأبدي الزهادة في حياة الزواج ، وأرفض الرجال وأنت في جملتهم ! حتى انتهرني أهلي واستحمقوني وأشبعوني لوماً وتقريعاً فقبلتك بعلا . . . أتظن أنك لا تعرف صاحبي هذا ؟ ؟ بلى تعرفه ! ومن تراك تعرف إذا جهلته ؟ ؟ ولقد عاد منذ قليل بملء جيوبه ذهباً وهو يحسب أن قد ساعفته الأيام على بلوغ أربه ولا يدري أنه آب بعد الأوان ! . . وأن من حقه أن أكون له دونك ، وقد كتب إلى يتقاضاني الوفاء الذي أقسمت له عليه فألهب كتابه النار التي كنت اخالها قد خبت .. وماذا عليك لو تركتني له ؟ القني له ولو كالعظمة أن شئت ! وأنت امرؤ لا يرى الدنيا إلا سوقا تفسدها العواطف .

وقد شاء ربك أن يرد قلبي إليه ويحفظه عليه ولست بقادر ، مهما تصنع ، تعترض قضاء الله أو تحول دون مشيئته ، ولخير لك أن ترمى إلى بزمامى . ولأن تدعنى جاهلا ماكان من أمرنا أفضل من أن تبقينى فتعلم ما نطويه عنلك . . نعم فقد رأينا أن الزواج لا سبيل إليه بعد أن بنيت أنت بى ، فتوافينا إلى بقعة مهجورة على ساحل اليم وتعاعدنا أن نكون زوجين وأشهدنا على زيجتنا هذه نجوم السماء والبحر والريح » وأنه لعقد لا يعترف به الناس غير أنه مع ذلك صحيح فيما بيننا ، ولأن يكون هو زوجى وعقيدى أولى من أن تكونهما أنت ! ! ولا نكران أن الأمر كان موكولا إلى اختيارى وأنى آثرتك عليه أمام الناس ولكن هذا كان لا مندوحة عنه ولا بد منه . وهل كنت تتوقع منى غير هذا فى سبيل التحفظ بشرفى ؟ ؟ نعم شرفى ! ولست بأول انثى اتخذت من الزواج ستاراً لحنينها ! . ولا يخفى على أنى من أجل هذا أستحق اللعنة ولكنى كنت مضطرة إليه اضطراراً . فأنت ترى أن كل شيء يدعوك إلى تركى واطلاقى إليه . . »

هممت بأن أكاشفه بهذا ولكن شيئاً عقد لسانى وألجم فمى ، فمنحته ظهرى واستقبلت الحائط . . وكأنما مل طول صمتى وآلمه انصرافى عنه واستدبارى إياه كلما حاول أن يتألفنى من نفرتى فجذبنى إليه بعنف أو لعله لم يعنف ولكن ماكانت تجيش له نفسى جسم لى الأمر فهاج هائجى واضطرم صدرى وثرت به أرجمه بكلام لا أملك حبس لسانى عنه وأقول له فيما أقول :

« انى أبغضك . . أمقتك من أخمص قدمى إلى فرع رأسى » !

قال : « ماذا تقولين ؟ » واعتدل فوق الفراش .

قلت : « لقد قلتها ! ألم تسمع ؟ لقد كان غيرك أولى بى لو أنصفت المقادير ! ! »

فوثب عن السرير إلى قدميه كالنمر الهائج وجذبنى اليه من شعرى

وصاح بي بصوت وحشي أشاع الرعب في كياني « من غيري هذا ؟ افصحي أيتها اللعينة ! »

فلم أستطع جوابا وعقد الخوف والألم لساني وأنا جاثية عند قدميه وخصل شعري ملفوفة على يمينه ، وشماله على جبيني يرفع بها وجهي إلى عينيه ومضت برهة كأنها الدهر ونحن كذلك ثم شد شعري وقال « انهضي » ودفعني إلى السرير « اسمعي ! لن أقتلك فأنت أهون من ذلك وعندي ماهو شر من القتل . فاعلمي أني لست كغيري من الرجال ! إنك زوجتي «أنا »— وعض هذه الكلمة — وستظلين زوجتي « أنا » رضيت أم سخطت ! ولست أعبأ شيئاً بالناس وما عسى أن يقولوا ، ويميناً ليس عندي لك سوى السوط أمزق به جلدك وأطير به من رأسك الفارغ كل ما يمكن أن يعشش فيه من من الأباطيل ولأطعمنك إياه كلما أجاءتك إليه الأهواء السخيفة » .

فبكيت وسرت في بدني كرعدة الحمى وتصاكت أسناني فصاح بي أن « أزجري عينك عن البكاء فلست ممن تلينهم الدموع أو تخدعهم ! ويظهر أنك تغفلتني أو كنت تحدثين نفسك بتغفلي . وسألقي عليك درسا يؤدبك غير هذا الأدب » .

فلم أجبه وظهرت على وجهي وهيئتي أمارات الاستخذاء والضراعة ولم يتركني حتى أقسمت له أن أصدقه الولاء وأمحضه الوفاء .

ثم نهضت إلى المرآة مرة أخرى وهي تقول « وقد أخلصت . وحمد لي إخلاصي وتبنى غلام صاحبي ولكني صرت إلى ما أرى ! .. وقد أسمعه أحياناً يهتف بي مناجياً « أيتها المرأة التي افتقدها ! من لي بان أراك كما كنت تبدين لي ! اشد ما أتعثر الآن في سيري بعدك ! وما أكثر ما يتساقط حولي من أوراق الحياة وأزاهيرها ! » ولكني لا أستطيع أن أجيبه حين يهيب بي وإن كنت أتبع له من ظله . »

* * *

وتقشعت السحب عن القمر فنفذ إلى الغرفة نوره فرفعت طرفى إليه ثم ثنيته إليها فإذا بالفتاة قد غابت!.. ذهبت كما جاءت بلا استئذان ولا احتفال.. فخطر لى أن أعالج الباب لأنظر أمفتوح هو أم مغلق وأن أرى ماذا فى الدولاب وتحت السرير ! . ولكنى استحييت من نفسى ! . وأشعلت سيجارة وجعلت أدخنها رائحاً غادياً فى الغرفة حتى إذا قاربت الانتهاء منها ألفيتنى واقفاً أتأمل صورة حسناء ! ! فابتسمت وقلت : « أهذا أنت يافتاتى ؟ ؟ كيف خرجت من إطارك هذا بالله عليك ؟ لشد ما أزعجتنى يا سيدتى ! فما جزاء من يعابث ضيوفه على هذا النحو ؟ ؟ أن أواريك عن عينى ! نعم ! »

وقلبت الصورة وأدرت وجهها إلى الحائط وقلت وأنا أتمطى على الفراش :

الآن أستطيع أن أنام فى أمان من خيالا تلك أيتها الحسناء الماكرة !

متاعب الطريق

ليس أخطر من التعميم فى الأحكام ، ولا سيما إذا كان الأمر خارجا عن دائرة العلوم المضبوطة وخاصاً بما يختلف فيه الناس ويتباينون ، ولكنا مع هذا نستطيع أن نستغنى عن الاحتياط إلى مدى بعيد ، وأن يأمن الخطأ إلى حد كبير حين نقول إن المرء حين يعشق ، أى حين تستبد به الرغبة وتغطى به العاطفة ، قل أن يفكر فى الاحتمالات أو فرص النجاح ، أو فى ماله من الصفات والمؤهلات التى تعين عن التوفيق أو تحول دونه أو فى طبيعة المرأة التى فتنته واستولت على هواه . ذلك أن المرأة تقع من نفسه فيجيش صدره بالرغبة فيها وتضطرم نفسه عليها ويغيم كل ما عدا ذلك فلا يرى أو يسمع أو يحس إلا هذه العاطفة المتأججة التى تسد عليه كل فجاج النظر . وغير منكور أن فى الناس من يسعه ضبط نفسه وقياس آماله إلى قوته وكبح عاطفته إذا تبين أنها موشكة أن تركض به بين الوعور ، كما أن فيهم من يمضى على وجهه كالمعصوب العينين أو كالمخمور حتى ينتهى إلى غايته أو يقع دونها . ولكن هذا لا ينفى أن العاطفة تتملكه قبل التفكير وهذا هو الذى نريد أن ننبه إليه لو أن الأمر محتاج إلى تنبيه .

والأديب شبيه بالعاشق ، يعرض له الخاطر فيستهويه ويسحره ولا يجرى فى باله فى أول الأمر شىء من المصاعب والعوائق ولا يتمثل له سوى فكرته التى اكتظت بها شعاب نفسه ، ولا ينظر إلا إلى الغاية دون المذاهب ويشيع فى كيانه الاحساس بالأثر الذى سيحدثه وقد يتصور الأمر واقعاً ولا يندر أن يتوهم أنه ليس عليه إلا أن يتناول القلم فإذا به يجرى أسرع من خاطره ، وإذا بالكتاب تتوالى فصوله وتتعاقب أبوابه . وتصف حروفه ويطبع ويغلف ويباع . ويقبل عليه الناس يلتهمونه وهم جذلون دهشون معجبون .

وإذا بصاحبه قد طبق ذكره الخافقين وسار مسير الشمس فى الشرق والغرب وخلد فى الدنيا إلى ما شاء الله ! ! يكبر كل هذا فى وهمه لحظة تطول أو تقصر ثم يهم بالعمل ويعالج أداءه فيتبين أن عليه أن ينضج الفكرة ويتقصى النظرة ويلم بهذا ويعرج على ذاك ، ويستطرد هنا ويمضى إلى هناك ، ويدخل شيئاً ويخرج خلافه ، ثم أن يصب ذلك فى قوالب ملائمة ينبغى أن يعنى بانتقائها ، وأن يتوخى فى الأداء ضرورات تقسره عليها طبيعة الخواطر أو المسائل — هذه تتطلب أيضاحاً وتلك لا معدى في سوقها عن تحرى القوة فى العبارة أو اللين أو السهولة أو الجمال أو غير ذلك . وأحر به حين يكابد كل ذلك أن تفتر حرارته الأولى وأن يدب الملل فى نفسه ، وأن يضجره أن يضطر أن يقطع الطريق خطوة خطوة ، ويكتب الفكرة الرائعة الجليلة التى استغرقته وفتنته ، كلمة كلمة . ويتناول منها جانباً بعد جانب ، وأن يعانى فى أثناء ذلك مشقات التعبير ومتاعب الأداء ، وأن يذعن لاحكام الضرورات ، فلا يستعجل فيفسد الأمر عليه ، بل يكر احياناً إلى ما كتب ويعيد فيه نظره ويجيل قلمه مرة وأخرى وثالثة إذا احتاج الأمر إلى ثانية أو ثالثة ، ويصبر على برح ذلك وعنائه وتنغيصه وتغثيته يوما وآخر ، واسبوعاً وثانياً ، وشهراً وعاما وأكثر من عام أو أعوام إذا دعت الحال . وفى أثناء ذلك كم خالجة عزيزة يضطر أن يتنزل عنها ويدعها مدفونة فى طيات نفسه لعجزه عن العبارة عنها وتصويرها وإبرازها فى الثوب الذى ينسجم عليها ويجلوها للقارىء كما هى فى ذهنه أو لأن كلمة واحدة — واحدة لا أكثر — تنقصها لتستوفى حقها من التعبير الذى يكفل لها الوضوح أو الحياة ؟ كم معنى يتركه ناقصاً أو غامضاً وهو «يحسه» تاما ويتصوره فى ضميره كأجلى ما يكون ؟ وما كل أمرىء يدخل فى مقدوره أن يحتمل هذا المضض كله . ومن الكتاب من لا يكاد يلتقى بأول صخرة فى الطريق حتى ينكص راجعا وهو يشعر بمرارة الخيبة بعد الغبطة التامة التى أفادته أياها الفكرة حينما نشأت ، ويروح يطير من فكرة إلى أخرى ولا يكاد

يصنع شيئا لأن العوائق التى لم يقدرها تغلبه ، والوعور التى لم يتوقعها تهيضه ، والمشقات التى لم يفكر فيها تسثمه .

والأدب إلهام وفن . ولكل فن أدواته وآلاته ، ولا بد فيه من الاحسان والتجويد ، أى من الصبر وصحة النظر وسلامة الذوق وصدق السريرة وحسن الاستعداد وما كان الصواب وصحة النظر ودقة الاحساس وحسن التخيل والقدرة على ذاك وغيره بمقصورة على الأدباء ولا هى بوقف عليهم ، ولكن كم ممن تفيض خواطرهم بالخيالات الرائعة والآراء السديدة والاحساسات العميقة يستطيعون أن يبرزوا هذه ويحدثوا فيها صوراً ويجلوها للناس كما هى فى نفوسهم ؟ ؟ الألفاظ ، التى هى أدوات الكتابة موجودة ولعل غير الاديب لها أحفظ وبها أعلم ، وهى فى طريق من شاء ، غير أنها ليست كل ما يحتاج المرء ليكون منه كاتب . كذلك الاصباغ والألوان حاضرة من شاء مد اليها يده وتناولها وصنع بها ما أحب ، وهى مادة التصوير ، ولكن من ذا الذى يحسب أنها كل ماينقص المرء ليكون مصوراً ؟ وكذلك لا يغنى العلم بالقواعد والاصول . وما عسى أن تكون قيمتها وحدها ؟ هذا وجه يريد المصور أن يرسمه وينقل إلى اللوح ما يترقرق فى صفحته من المعانى ويجول فيه من الأمواه ؛ فكيف بذلك ؟ كيف يجعل هذه الشفة ناطقة بالسخرية ، أو تقويسة الذقن معبرة عن التصميم ، أو لمعة العين شاهدة بسجاحة الخلق ورضى النفس ؟ وكيف يشعرك ما يشعر به هو من السحر أو الدلال ، أو القوة والجلال ويفيدك ما أفاد من الانس والغبطة والروح ؟ أو كيف يجعلك حين تنظر إلى الصورة الحاكية تشتهى — مثله حين يجتلى الأصل — أن تغمض عينيك وتنقل نفسك إلى عالم آخر من الخيالات والخواطر والاحساسات ؟ وما يقال عن المصور يقال مثله أو أكثر منه عن الكاتب أو الشاعر . والأمر فى كلتا الحالتين يحتاج إلى فطرة مهيأة له أسبابها وذوق مؤازر وسليقة مناصرة وملكة معينة على حسن اختيار الرموز الكفيلة بافراغ الخواطر فى القوالب

الملائمة ، والقادرة على إحداث الصور المطلوبة فى أذهان القراء . وعلى ذلك يكون المرء صانعاً لا أكثر إذا رزق الفن وحرم الالهام — صانعاً كهذه الآلات التى تدور بلا روح وتخرج ألواناً وضروباً من الصور تعجب بصقلها ودقتها وإحكام صنعها ولا تحس أن يد إنسان حى أو قلبه وراءها .

وكم من الناس يفكرون فيما يقاسيه الأديب ؟ ؟ أين ذاك الذى يطالع الكتاب أو الديوان ويعنى بأن يصور لنفسه الجهد الذى بذله صاحبه والغصص التى تكبدها وصبر عليها — جهد التفكير والاداء ، وغصص النجاح والفشل على السواء ؟ أنه لا يقدر ذلك إلا من عانى هذه المآزق وخاض غمراتها وذاق مرارتها . وشبيه بهذا أن يقف رجل من الاوساط العاديين أمام صورة يتأملها ويدير فيها عينه ويعجب بها أو لا يعجب ، وهو لا يدرى أنها ليست ألواناً وأصباغاً مزجها المصور وزواج بينها وساوقها بل قطعة حية من نفسه إذا نظر اليها صاحبها كرت أمام عينه سلسلة طويلة من الألم واللذة والندم والغبطة والغيظ والكمد والسخط والرضى والأمل والخيبة ومن أسبابها ودواعيها المباشرة وغير المباشرة .

لى صديق مصور مخلص لفنه دعانى مرة إلى محله — وكان هذا منذ سنوات ثلاث — وقال « إنى أريد أن أرسمك لأنى أتوسم فى رأسك مادة صالحة لصورة لها قيمة فنية » فشكرت له ذلك وقلت له إن عندى من الغرور ما هو فوق الكفاية ولم يكن ينقصنى أن أعلم من فنان مثلك أن رأسى جدير بالتصوير ، ثم جعلت اختلف إلى داره فى الأوقات التى يعينها وأجلس اليه فى كل يوم من هذه الأيام نحو نصف ساعة تتخللها فترات أستريح فيها من هذه الجلسة المتعبة . فكان ربما بدأ مرتاحاً إلى العمل مقبلا عليه مهتما ثم لا يلبث أن تعتريه الكآبة ويعلو وجهه الوجوم فتتدلى يداه وينثنى رأسه على صدره ثم يرفعه ويرسل زفرة غيظ من بين أسنانه المطبقة ويعود كالذى يهم أن يتناول اللوح فيمزقه ويعمد إلى فبرمى رأسى

بالكراسى والألواح ويطردنى رفسا بقدميه ! ! وكنت أحاول أن أرد إليه ما يعزب عنه فى هذه اللحظات من خلقه الوادع وأقول له إن هذا الذى تكابد ليس بغريب عنا معشر الكتاب وربما كنا أسوأ من المصورين حالا وكان فننا أشق وأمر فيقول كلا ! إنكم أيها الكتاب تستطيعون أن تسوقوا خواطركم ومعانيكم واحداً فى أثر واحد فان أغفلتم معنى لسبب من الأسباب فقلما يفطن القارىء إلى ما أهملتم ، وهل كان يدرى قبل أن يقرأ كلامكم أنه كان فى رءوسكم كذا وكذا فأودتم منه هذا وأطرحتم ذاك ؟ ولكن صورة الوجه على اللوح إما أن تكون حية ناطقة أو ميتة خامدة الروح وليس يخفى موتها أو حياتها على الناظر إليها . وقلما يفوته التقصير فى انطاق الوجه وأداء المعانى المرتسمة على صفحته ، وقد تدق بعض المعانى المكتوبة عن الأفهام لتعويصها أو غرابتها أو سموها أو لطفها ودقتها ولكن شخصية الإنسان لاتخفى على الإنسان وقد يعجزه أن يصفها ولكنه لا معدى له عن أن يحسها ، والصورة كذلك ومن هنا كانت أشق وكان الإخفاق أخلق بأن يكون أبين .

وأذكر أنى منذ أكثر من خمسة عشر عاماً قام بنفسى أن أضع كتاباً « ضخما » فى فلسفة الشعر وأن أجعل هذا عملى الأدبى فى حياتى وقلت لنفسى حسبى به إذا رزقت التوفيق فيه ، واستخرت الله فى امضاء الفكرة ولم يكن يغيب عنى فدحها فشرعت أعد لها العدة الكافية واقرأ كل ما استطعت أن أقرأه مما له علاقة قريبة أو بعدة بموضوعى ، وقسمت الكتاب إلى أبوابه التى تنطوى تحتها أغراضه وحصرت كل ما أريد أن يتفرع إليه ثم لم تزل تقوم الموانع وتعترض الحوائل ومضت على وعلى كتابى هذه السنوات الخمس عشرة ولم أتجاوز إلى هذه الساعة المقدمةوفصلين أحدهما هو المدخل ! ؟

ويظهر أنه ليس أعون على المثابرة والصبر من « خفة » الاحساس ومن

أن يكون المرء بحيث لا تهتاج آماله أو مخاوفه إلى درجة من الألم والالحاح لا تحتمل ولا يسع المرء معها رفقاً بنفسه وابقاء عليها إلا أن يفرغ من الأمر الذى يعالجه ولو خسر فى سبيل ذلك غايته ، وأعنى أن يكون المرء هادىء النفس قليل الاكتراث قادراً على الانتظار مطيقاً للصبر راضياً عن نفسه مستعداً للارتياح إلى كل ما عسى أن يشغله ، يستوى عنده أن يكتب فى الفلسفة أو يصف حوانيت الباعة ، وأن يستكشف القطب الشمالى أو يهتدى إلى حانة تبيع الويسكى بأثمان زهيدة ومقادير كبيرة ، مادام هو الذى يفعل هذا أو ذاك ومادام رضاه عن نفسه لا يضعفه سبب من الأسباب وليس من النادر أن يرزق هذا الضرب من الناس حظا من البساطة الطبيعية ترفعهم وتذرى منهم . ولكن ما عسى صبر الذين تطغى بهم البواعث القوية وتلج بهم الأشواق الحادة والرغبات الجامحة وتدفعهم إلى محاولة الوثوب وتعجلهم ولا تدع لهم فرصة راحة يروضون فيها نفوسهم ؟

ولعل هذا هو السبب فى أن الأمة الانجليزية لم تنبغ فى شىء نبوغها فى الشعر الذى يرجع فى مرد أمره إلى الارادة والعاطفة ، وأن الأمة الفرنسية من « أفصح » الأمم . ذلك أن الشعر عبارة عن الاحساس الذى يعترف به المرء لنفسه ساعة الخلوة بها ويرمز له بما هو أقرب إلى الصورة التى هو عليها فى نفس الشاعر . أما الفصاحة فاحساس كذلك ولكنه يصب فى أذهان أخرى ويلوى إليها طلباً لعطفها أو التماساً للتأثير فيها أو نشداناً لتحريكها وحفزها إلى العمل ومن هنا كانت الأمة الفرنسية أضعف الأمم الكبرى شاعرية وأفصحها فى الوقت ذاته إذا كانت أشدها غروراً وأعظمها اعتداداً بالنفس !

مجالسة الكتب

ومجالسة الناس

كنت أهم بأن أكتب غير هذا المقال ، وكانت الفكرة حاضرة ، والورق مهيأ ، والقلم مبرياً ، ولكنى أشرفت من النافذة فأخذت عينى صبياً يلعب بالحصى وبهيل الرمال ، وفى ناحية أخرى فتاتان تتحادثان وتتضاحكان فقام بنفسى سؤال لم أستطع التملص منه على فرط ماجاهدت : ماذا يعبأ هؤلاء بما كتبت أو بما عسى أن أكتب ؟ ؟ بل هبنى جعلت الصبي والفتاتين موضوع مقالى وأدرته على ما أرى منهما ومنه ؟ ؟ أيكترثن لى أو يحفلن بى وبما أسطر؟ كلا ! ولعل أحرى بى أن أسأل : أيعود أحد منهم أصلح للحياة وأقدر عليها وأعرف بها من أجل أنى أجريت هذا القلم بكلمات فيه أو عنه وهو لو قرأها أو تليت عليه لما أحس أنه موضوعها ؟ ؟ كلا أيضاً ومع ذلك أباهى بما قرأت ، وأعتز — على الأقل فيما بينى وبين نفسى — بما كتبت ، وأفرح بالخالجة تدور فى لحظة نفسى ويجيش بها صدرى برهة ، وقد أضعها فى كفة وأضع الطبيعة كلها فى كفة أخرى ! وبعبارة أخرى أغالى بالفن وأعدو به قدره ثم انقلب بجزاء من يفعل ذلك !

أى شيء هذه الكتب ؟ ستقول إنها عالم حافل بالمتع ، وأنها لكذلك ولكن أين ذلك الذى يسعه أن يزعمها العالم الوحيد ؟؟ وهى ديوان قيد فيه السلف ما وسعهم أن يورثونا اياه من معارفهم وخواطرهم وتجاربهم غير أن هذا ليس معناه أنها كل ما يمكن أن نعرف أو يخطر لنا أو نحسه أو نجربه . والحياة كتاب أوسع وأضخم من كل ما حوت المكاتب قديمها وحديثها وليس ما على رفوفنا سوى صفحات قليلة من هذه الموسوعة الهائلة. ولقد عبر « هولاكو » على جسر من الكتب فلم تقف الدنيا ولم يثقل الزمن

رجله ، ومضت الحياة فى طريقها كأن لم يحدث شىء ولم يفقد الناس هذه الكنوز ، بل كأن لم يكتبها أحد ولم يضن فيها نفسه ، ولم يخلق فى تحبيرها أيامه ، ولم يبل فى إخراجها حياته ! بل كأن لم يكن أصحابها قد خلقوا قط ! وهل ما أخرج الكتاب من آثار أقلامهم هو كل ما كان يمكن أن يكتب؟؟ لا أظن أحداً ممن يعانى الكتابة يذهب إلى بعض ما كتبوا ليس إلا بعض ما اضطرب فى صدورهم وقد لا يكون خيره . والكتاب الذين ظهروا فى هذه الدنيا ليسوا كل من يحس ويفكر قرب تاجر يمسى ويصبح بين السلع جيدها ورديئها ، والمساومات شريفها ووضيعها ، والمكاسب حلالها وحرامها ، هو أبعد مدى ذهن وأوسع مضطرب فكر من كانت أو كونت أو من شئت غيرهما ، ورب حمال يقضى عمرة حانياً ظهره للأثقال هو أحس بالحياة والطبيعة من ابن الرومى ، وقد تزدرى أمياً جاهلا وهو — لو علمت — أحد طبعاً من المتنبى ، ولكنه الغرور ولا أدرى ماذا أيضاً — فليس أبغض إلى من التقصى — يخيل لنا أن الحياة تعقم بأمثال من ظهروا ويظهرون فيها من الكتاب والشعراء والفلاسفة ومن إليهم ! وكل هؤلاء الذين نعدهم « نكرات » يأتون إلى الدنيا ثم يخرجون منها ولا يخلفون وراءهم أثراً أدبياً والدنيا لا تنقص بذلك كما أنها لا تزيد بمن نعرف من أبنائها « المعارف »! والحياة كالأوقيانوس الأعظم لا يزيده صوب الغمام ولا ينقصه ما تأخذ منه ! وهب الدنيا خلت ممن عليها من الناس ، وصفرت من كل أصناف الخلق فماذا إذن ؟ لا شىء! تظل الأرض دائرة حول الشمس ، ولا تكف الشمس عن إضاءتها كما تفعل الآن إذ نحن عليها نروح ونجىء ونكد ونسعى ونشقى ونسعد ثم نموت ! ونحن نموت أفراداً وجيلا فجيلا أليس كذلك ؟ ولا تعود الدنيا موجودة فى نظرنا — لو أنه بقى لنا بعد الموت نظر — ونعود نحن فيها ، أليس هذا هكذا أيضاً ؟ فهب جيلنا كان آخر جيل ، أفتظن أن الدنيا كلها تقضى نحبها من أجل أننا نحن قضينا نحبنا ؟ إذن لا « تصرب » تظرك يا مازنى إلى هذه الحيوات الصغيرة

الساذجة التى تبدو لعينيك إذ تطل من نافذتك ولا تبتسم إذ تجتلى مظاهرها كأنك تزدريها أو « ترثى » لأصحابها الذين لم يقرأوا ما قرأت ولم يعرفوا ما عرفت . فإنها حافلة بالمتع والعجائب كهذه الكتب التى تعنى بها ولا تكاد تحفل ما عداها ولعلها — لو بلوتها — أجدى عليك وأشرح لصدرك مما أضعت عمرك فيه .

وما من ريب فى أنى لو كنت أصغر مما أنا اليوم بعشر سنوات أو خمس عشرة ، لخرج المقال من يدى على غير ما يخرج الآن ، ولكان الأرجح فى الاحتمال أن أشيد بذكر الكتب والعكوف عليها والانقطاع لها والانصراف عن الدنيا من أجلها ، ولكنى لسوء حظها كبرت !! وبلوت من جرائرها ما أسخطنى عليها وبحسبى من ذلك أن صارت مجالس الناس وأحاديثهم عندى غثة لا تكاد تساغ ولا تستمرأ ، وأنى مضطر أن أعالج نفسى لأطيقها وأصبر عليها ولا أقول لأستمتع بها . وليس ذلك لعزوف طبيعى عن الناس وكراهة لمخالطتهم ولكنها الكتب قبحها الله ردتنى كالمترف الذى تؤذيه خشونة العيش !!

ألست قد عشت بين خير العقول وأخس النفوس ، وألفت أن أتناول عصارة الأذهان وخلاصتها النقية الممحصة ، واعتدت الصقل فى سوقها والفن فى عرضها وإبرازها ؟ فما عسى الصبر إذن على أحاديث المجالس الخاوية المبتذلة ؟؟

كيف لمن يقضى الشطر الأكبر من أيامه ولياليه بين شعراء الدنيا وكتابها ، بإطاقة المستوى الذى لا تكاد ترتفع عنه أحاديث المجالس ؟؟ وما للكبر دخل فى هذا ولا للغرور أصبع فيه ولا ظفر ، وإنما هى العادة التى يقولون عنها أنها طبيعة ثانية . وما مثلى إلا كمثل الذى نشأ فى بيئة أرستقراطية كما يسمونها ودرج على عاداتها وتقاليدها وآدابها ، مثل هذا

لا يحسن أن يعايش من هم من طبقة الخدم والطهاة أو العملة وباعة الأسواق . ولاشك أنه يحادثهم أحياناً ويحتك بهم قليلا ولكن هذه ليست معايشة ، وأكثر ما يكون اتصاله بهم حين يصدر إلى واحد منهم أمراً أو يبتاع سلعة أو يفعل ما هو من هذا بسبيل ، ولو أنه جالس طائفة من هذه الطبقة لملها واستثقل وطأتها على كل صبره . والعكس صحيح أيضاً . وليس السبب أن هذا من طبقة عالية وذاك من طبقة واطية أو متوسطة بل السبب فيما أظن هو أن من تتباين نشأتهم وتتباعد طبقاتهم تضيق بينهم الدائرة المشتركة ، والأحاديث تدور على الأكثر فى هذه الدائرة . ومن هنا لايطرد الحديث فى مجاريه العادية بين من ألفوا الكتابة والقراءة وبين سواد الناس . ذلك أن الكاتب اعتاد التفكير وإطالة النظر إلى المسائل من كل الجوانب التى يتفطن إليها ويسعه أن يحيط بها، وأن يعرضها مرتبة مبنياً بعضها فوق بعض ويسوقها فى عبارة يتخيرها لها ، وليست الأحاديث كذلك . فهى متقطعة متوثبة سطحية فى الأعم والأغلب ، ولا يزال الناس ينتقلون فى مجالسهم من موضوع إلى آخر ولايتريثون هنا أو ههنا ، فيكون الكاتب بين أمرين : أن يلزم الصمت . أو يثقل على جلسائه . ولاشك أن غشيانه المجالس واختلافه إليها يصقله ويعده لها ويذلل له ما تقيمه عادته من العقبات وقد ينفعه ذلك ويحرك ذهنه ويطلقه من القيود التى تحفه بها مزاولة فنه . ولكنه لاشك أيضاً فى أن روح الأحاديث هو التعاطف وإن تباعد ما بين الجلساء يضعف هذا التعاطف ويحيل المحضر موقراً باحتمالات الملل والسآمة من الجانبين . والمرء لايستطيع أن يسمو فوق مسعاه لأن استطاعة ذلك معناه أن المرء يسعه أن يحلق فوق نفسه وهو عين المستحيل . واعلم أن « الماسونية » ليست بمقصورة على رجالها وأن لكل طبقة منها نصيباً وكما أنه لايفهم رموز الماسونى حق فهمها إلا صنوه وقرينه كذلك لا يتم التفاهم إلا بين القريعين . على أن بعض الناس يذهبون إلى أنه لا خير فى محادثة القرناء إذ كانوا خلقاء أن يعرفوا ما عساك تقول وإنما يحلو الحديث وتجدى — كما تجدى الصداقة —

بين المختلفين . وهذا صحيح ولكنه ليس كل الصواب لأن كون اثنين فى مستوى واحد لا يستوجب التطابق بينهما . وهذه المدارس تلقن التلاميذ علوماً واحدة غير أن هذا لايجعلهم أشباهاً ولا يحيلهم كالنسخ المتعددة من الكتاب الواحد ! وقد يقرأ الكتاب رجلان ويخرج أحدهما بغير ما يخرج به صاحبه .

والكاتب يعنى بالفكرة قبل أن يعنى بوقعها ، وهمه الأول جلاؤها وعرضها فى أحسن حلاها وأقواها . ولا ريب أنه وهو يكتب يجعل باله أيضاً إلى التأثير ، ولكن هذا لا يشغل من نفسه الحيز الأكبر بل هو يأتى تبعاً لمعالجة الأداء . والحال على خلاف ذلك فى الأحاديث فإن المرء لايزال يدير عينه فى وجوه الجلساء ليستشف منها الأثر الذى أحدثه كلامه . وما أشبه الكاتب بالممثل الذى يعنى بدوره ويصرف همه إلى القيام به ويخلى ذهنه ، على قدر ما يسع إنساناً أن يفعل ذلك ، من التفكير فى جمهور النظارة الذين يجعلونه قيد أبصارهم ، أما حديث المجالس فقريب الشبه بالخطابة بل هو صورة مصغرة منها ، والمرء لاينفك كما أسلفنا يستنبئ الوجوه ويستخبر العيون ويحاول أن يتخذ منها مرايا يجتلى فى صقالها وضاءة حديثه وبهجة كلامه ومن ذا الذى لا يعنيه ما يند عن شفتيه ولا يبالى أين وقع ولا يكترث لكلامه أتلقفه الناس أم ذهب مع الريح ولم يلتفت له أحد ؟ ولهذا لايسع المرء إلا العناية بأمر جلسائه إلا مراقبة حالة نفوسهم فيرتفع معهم ويحلق إذا رآهم مطيقين للتحليق راغبين فيه مستعدين له ويهوى معهم إذا هوت بهم البلادة أو التعب أو الضجر أو غير ذلك .

وأتعس المجالس وأثقلها على نفس الأديب تلك التى تتألف من الأوساط أدعياء الثقافة . فيها يدور الحديث على الآداب والفنون ولكنه حديث منقول عن الصحف والمجلات يلوكون فيه ماتكتبه لهم . ويفسدونه إفساداً لا سبيل إلى الصبر عليه . وعذرهم واضح وعذرك أوضح فالموضوع الذى يردونه منك

إليك لا يعنيهم كما يعنيك ولا يستمدون الباعث على طرقه من أعماق نفوسهم مثلك . وقد لا يدرون عنه إلا بعض ما التقطوه منك . وتشعر بالتقزز إذ ترى القوم يمزقون بأنيابهم خواطرك ومعانيك ويلقونها إليك خرقاً قذرة وتصدك الآداب العامة عن تنغيصهم ، ويقضى ذلك على صدق السريرة ويذهب بالإخلاص ويغيض من جراء ذلك معين اللذاذة المستفادة من الاجتماع ، ومن هذا الضرب أفراد يحفظون من الكتب أسماءها وأسماء مؤلفيها وبعض ما يقال عنها ويدورون بهذا على المجالس يعرضونه عليها كالإعلانات حتى لكأنهم فهارس حية أو قوائم متنقلة !

وليس من النادر أن يكون الأدب أو العلم أو غير ذلك مما اشتهرت به من ذنوبك عند بعض الناس ، فلا يكاد يغشى أحدهم مجلساً لك أو يلتقى بك حتى يشرع فى تنغيص متعك وتكدير صفوك . فإذا كان الشعر فنك أنحى على الفن كله وبسط لسانه فيه وسمى كل سخافة « خيال شاعر » وإذا مدحت شيئاً أو أظهرت ارتياحك إليك أو ولوعك به ذمه وسخر منه أو عرض بسوء رأيه فيه واحتقاره له — ولك ضمنا — إذا جبن عن التصريح وهكذا يظل يطاردك ويتعقبك حتى يسود الدنيا فى عينيك ويملأ نفسك نقمة على الحياة والناس إكراما له !

والأديب كالمغنى الذى يرسل صوته غير معتمد على آلة موسيقية تشبع أنغامه وتسد نقصها وتملأ فراغها ، وقد ألف أن يجعل معوله على ما للعبارة وحدها من وقع ، وليست كذلك الأحاديث التى تستمد جانبا كبيراً من قوتها أو حلاوتها أو بهجتها من المكان والاجتماع والجلساء وإشاراته ونظراته وصوته . ومن هنا يخطىء كثيرون ممن يبرزون فى المجالس فيحسبون أنهم يستطيعون أن يظهروا فى عالم الكتابة كما ظهروا فى عالم المجالس ويتوهمون أن الوقع الذى يوفقون إليه فى أسمارهم لا يخطئهم إذا تناولوا القلم وأجروه بدلا من اللسان .

وليس — أشق عندى على الأقل — ولا أشد إجهاداً للأديب من مجالس النساء ! ماذا يقول لهن ؟؟ فى أى شيء يحادثهن ؟؟ كيف يجعلهن يرتحن إلى حديثه ويتقى إملالهن ؟؟ هن لايكدن يحملن معهن غير ثيابهن وزينتهن وعجبهن وما يتصل بذلك من قريب أو بعيد ، وهو لايكاد يحمل معه سوى آرائه فكيف السبيل إلى التوفيق بين هذه وتلك ؟؟ ومجالسه الكتب تحيل المرء أشبه بها حتى ليعود وكأنما لا ينقصه إلا أن يغلف ويوضع على الرف بين أخوته !! وطول العهد بها يشيب النفس قبل إشابة الرأس ، ويطفىء لمعة العين . ويعوق تدفق النشاط الجثمانى ، ويغرى بالسهوم والصمت ، ويفعل ما هو شر من ذلك : يبعث على التعليق بالمثل العليا وصور الكمال ويشرب النفس حبها ويعلمها نشدانها فإذا راح يضرب فى غمرة الحياة تعثر ولقى فى كل خطوة صدمة : كالذى يسلك طريقاً ومعه مصور لخلافه . !

لولو . . ؟!

لولو ؟ ! ما « لولو » هذا أو هذه ؟ أهى فتاة حرة المقلد ؟ أم طفل غرير مدلل ؟ أم زهرة نضيرة ؟ أم عصفور مغرد ، أم أغنية شجية ؟ إن فى اللفظ ما يشعر « بالصغر » ويكر بالذاكرة إو «الشباب» — إن كان قد ولى أوانه — وحسبك أن نطقه يتقاضاك زم الشفتين ، وتكليف العينين ابتسامة الدعابة ولمعة الغبطة ، وتجشيم الأسارير الأبراق ، والنفس محاولة الاشراق ، فماذا هو ؟ لاأدرى !! ولعله كل ذلك ، فما أعرف من اللغات إلا ماليس فيه هذه ، ولقد شببت عن الطوق « جداً » وارتفعت عن كل حداثة ارتفاعاً أجلسنى على ربوة الحياة حيث تنازع السحب الضياء وأما الشباب وإيماض العيون وإشراق النفس فإنى أنا القائل :

نضب العزم ، والمنى ثرة العين	لعمرى ما أسوأ القرناء !!
شيبة العزم مع شباب الأمانى !	أضعيف يظاهر الأقوياء ؟؟
دون ماتبتغى حوائل ضعف	فاجعل العزم والمنى أكفاءا
أيها « الطين ما ترى بك أبغى !	لست فيما أرى لشىء كفاءا !!
إن طلبت السماء قلت لى الأرض	أو الأرض كنت لى عصاءا
صرت حتى الذى أفكر فيه	لست أستطيع صوغه والأداءا

والنفس تهرم أحياناً قبل الجسم ، فتعود وكأن الزمان عمرها ، وإن كانت بسنها صغيرة ، وكلما أحس المرء دبيب الهرم زاد شعوره بالتبعات ووجد أن الحوادث لا تتوالى على روى واحد ، وأن منطق الطبيعة غير منطقه ، وأنه يدنو من مركز الدائرة وينأى عن محيطها ويشعر بالدنيا

تدور حوله فى صخب وضوضاء يزعجان تلك الخلية الضئيلة التى تسمى الحياة ، ويرجانها فيتمنى لو أنه استطاع أن يحول دون النمو . وأن يأخذ على الأيام متوجهها ، وأن يبقى عمره طفلا يدور مع الحياة على محيطها .

ولكن الذى أدريه أن صديقاً لى ، فيه شذوذ قلما أفهمه ، قال لى عصر يوم فى الاسكندرية « متى تعود إلى مصر ؟ » قلت « صباح غد » قال : إذن قم بنا إلى ساحل البحر » قلت « البحر ولا شك خير من جوف هذه المدينة فلننهض إليه إذا شئت ، ولكن إلى أى بقعة من ساحله نذهب ؟ » قال « وما يعنيك من هذا ؟ أو ليس كله ساحلا ؟ فلم أشأ أن أثقل عليه فيضيق صدره ويسوء خلقه ، ونهضنا إلى الترام فركبناه وخليت بين صاحبى وبين سبيله حتى انتهينا إلى آخر موقف ينساب إليه الترام فانحدر بى إلى طريق لا يفضى إلى بحر ولا إلى صحراء ! ! وإنما يؤدى إلى درب بين الحقول تقطعه السيارات إلى أبى قير ويترقرق على محاذاته جدول صغير ، ثم أخذ ينفض المكان بعينه كالذى ينقب عن مخبأ فيه وهو معبس محدق فى الأرض يعد خطواته فى هذا الطريق الذى ملنا إليه ، ومعلوم أن الخواطر كالمطاط لا تشغل حيزاً واحداً على الدوام فقد ترى الخاطر الضخم مضغوطاً فى الذهن من فرط الزحام حتى ليعود كالذرة . وقد تنتفخ الخالجة الصغيرة وتملأ من الذهن كل فراغ يكون فيه . كذلك كان رأس صاحبنا خالياً إلا من أمر واحد هو الذى ساقه وساقنى معه إلى هذا المكان .

ولم أرد أن أزعج عصافير رأسه وأطيرها عنه فتركتها تسقسق له وخليته ينصت إليها ، وسرت إلى جانبه صامتاً مخففاً الوطئة وصرت أشفق عليه حتى من وقع قدميه . وكنا قد ملنا إلى جانب معشوشب من الطريق حسبته أثر المشى على حشائشه الندية لأن صوت الأقدام فيه أخفت ولكنا لم نكد نقطع منه بضع عشرة خطوة حتى وقف بغتة كالذى صده جدار

وأومأ بسبابته إلى الأرض وهو يقول لنفسه « هذا هو المكان بعينه» وارتمى على الأرض دون أن يكترث لى كأنه لايرانى أو كأنى لست معه ؟ فضقت ذرعا بهذا الحال ، وأسفت على مسايرته ، وما ذنبى حتى أتكلف الصبر على كل هذه الكتلة من الشذوذ ؟ لقد أردت الرياضةولكنى أرانى كالذى خرج ليدرس موضوعاً ! غير أنى مع هـــذا كبحت نفسى عن مطاوعته السآمة والاستسلام للضجر ، وأقنعتها بأن المروءة أن يحترم الإنسان إحساساً كائنا ما كان — يستغرق النفس الآدمية إلى هذا الحد ، حد الذهول ، ويستولى على كل جوانبها ، ويملأ كل شعابها وينبض به كل عرق. ومايدرينى؟ لعل هذا الإحساس ، مهما يكن باعثه المباشر ، ثمرة إحساسات عمر بأسره وحياة بكل ما انطوت عليه ! ومع هذا ، وعلى الرغم من ذلك هممت بأن أقف على كيانه المتداعى هذا وأقول له ساخراً « أعاشق أنت ياسيدى ؟ إنها لساحرة تلك التى تستطيع أن تصنع هذا بمثلك ؟! ولكنه كان خاطرا كخطف البرق ماجاء حتى ذهب . فقعدت إلى جانبه وخلعت طربوشى وغطيت به وجهه !! فاستوى قاعدا وهو يقول « إنى أعرفك شيطانا ! فلماذا أطرت أحلامى ؟ » فانحنيت له معتذراً ! فقهقه ضاحكا وكف فجأة وأطرق هنيهة ثم رفع رأسه وقال بلا تمهيد .

« لقد كان هذا المكان ساحرا وكانت أوراق الشجر والحشائش كالحديدة يومض فيها طلها تحت أشعة الشمس ، وكان يخيل لى أنها « مستوردة لا نابتة وكانت من رقة النضارة فى رأى العين بحيث كنت أشفق أن أطيل النظر إليها مخافة أن أذويها باجالة الطرف فيها . وكانت الشمس ، قوية وكان يقينا لفحها هذا السياج من النبات ومن خلفه هذه الخراف بأعيانها سوى أنها كانت مستلقية على الأرض لاترعى ، وكانت الفراشات لا تكف عن الطيران من هنا إلى هنا كأنما حماها صغرها تأثير الحرارة التى تذبل ماهو أكبر منها . وكان بساطنا هذه الأغيصان الندية ، والناس يمرون بنا ويديرون عيونهم فينا ثم يذهبون عنا ونحن فى شغل عنهم وعن لحظاتهم بأحاديثنا و ... »

« وماذا كنتم تقولون ؟ أو لعله ينبغى أن أقول ماذا كنتما ؟ ؟

فلم يلتفت إلى استدراكى وقال :

« كانت لولو ... فهذا اسمها عندى ... ألا تعرفه ؟ ».

« قد عرفته الآن ! » .

« ... كالتى يفيض قلبها بشىء تحبس نفسها عن الإفضاء به . وكانت ربما أشاحت بوجهها عنى وأسندته إلى كفها وأرسلت لحظها فى الفضاء غير ناظرة إل شىء على التعيين وتركتنى أصب فى مسمعها ما أهضب به وقد تجيبنى أحيانا ولكنى كنت أقرأ فى عينيها غير ما يجرى به لسانها ، فكان بيننا حديث مسموع وآخر صامت وكان الصامت أصدق الحديثين نعم فهى عجيبة فى تناقضهاعجيبة فى ازدواج شخصيتها، لينةالنظرة ، جامدةالفم، رضيةالخلق ساكنة الطائر ، مكلومة الفؤاد هادئة المظهر تتناول كفها فلا تدرى ألينة هى أم صلبة ، وتتأمل محياها فتحس فيه الذائب والجامد ، والسلس والوعر ، والترف والخشونة ، والحرارة والفتور والرغبة والزهد ، والضعف المتناهى والقوة التى تغرى بقلة المبالاة وتدفع إلى عدم الاكتراث بما كان وهو كائن وما سيكون . ولقد استثارتنى رقة عينيها فأمسكت عن إتمام ماكنت قائلا كأنما كان الكلام يعوقنى كالذى يخلع نعليه ويدعهما ويعدو حافياً، وجذبتها إلى بغتةوإن كان لا شك أنها كانت تتوقع ذلك وضممتها وطبعت على ثغرها قبلة . ولكنها ضمت شفتيها ولم تعاطنى التقبيل ! وإن كانت عيناها قد ظلتا تلمعان بنور الابتسام ، ثم مسحت بكفها على الحشائش وقالت «لا ينبغى أن نظل هكذا جالسين فقم بنا نعد من حيث أتينا فقد أمسينا . »

قلت « دقائق أخرى ! »

قالت « بل يجب أن نعود أدراجنا » .

قلت « فقبلة ثانية أولا » .

قالت : « حسبك واحدة » بلهجة من يكظم زفرة طويلة حارة . ثم رفعت إلى وجهها فقرأت فى صفحته :

«إنى اخشى أن أرعبك إذا أنا كشفت لك عن حدةرغبتى فى الاستسلام لعواطفى ! كلا ! لست بالفاترة التى تراها وأنى لأحس أنه كان الأولى ألا أحيى بهذه المفاتن إذا لم يكن من حقى أن أتمتع بها . وهل وهبنى الله إياها ليتمتع بها الناس دونى ؟؟ » .

« ومع ذلك ألحت أن نعود !! » .

وأكب ينظر إلى الأرض برهة وجعل يقتلع الحشائش ويعبث بها ويقول :

« ولها نظرة إنكار أوشك تلقى إليك بها بجانب عينها ، كلها تصديق وكلها تكذيب ، كأنما علمتها الأيام أن تستريب ولا تطمئن إلى ماتسمع وأن تعدد عبارات الحب والعطف ملقاً ودهانا ، أو لهواً وعبثا ، ولكن شبابها يغريها بالركون إلى ما يدرك عقلها الذى نضج قبل الأوان أنه «ألفاظ ألفاظ» كما يقول هملت ! فيالها من نفس ظامئة ! ما أقسى الحياة التى تحمل زهرة ليس لها غير الحسن قوة ، وما تنوء به الشجرة الضخمة ! » .

ثم التفت الى فجأة وسألنى « وكم تظن عمرها يا صاحبى ؟ إنها لا تزال فى العقد الثانى من حياتها ! فلشد ما أخشى أن تذبل هذه العين وأن تخلو من المعنى لحاظها ! لقد جالستها ثلاث ساعات طوال لم تنطق فى خلالها بما يملأ خمس دقائق ! وشفتاها مع ذلك تهمان أبدا بالإنفراج ، ولكن شيئاً يطبقهما ويعيد ما يحاول أن ينفذ من بينهما ، إلى صدرها فيعلو ويهبط وتظل الشفتان مطبقتين ! ولقد قلت لها جادا « هنا شىء يجثم على هذا الصدر » فأدارت إلى بعض وجهها ونظرت إلى بمؤخر عينها وقالت واللمعة شائعة فى العينين والتحجر مرتسم على الشفتين « أى شىء ؟ » قلت «لا أدرى ؟ ولكن هنا شيئا على التحقيق ! وأراهن ! » فهزت كتفيها كالآسفة وقالت «لا! أبداً !! » فالحفت فى المسألة وداورتها فلم يجدنى ذلك ولم أفز بطائل فليت لسانى كان فى فمها ! إذن لنطقت عنها ولرفهت عن هذا الصدر المثقل عما لا تحسن العبارة عنه ! وهل هو إلا الظمأ إلى الحب ؟؟ هو ذاك على التحقيق الظمأ إلى ماتخلوها عنه الدنيا وتحرم عليها أن ترد شرعته وتعب فيها كخلق

الله : وماذا عسى أن يكون غير ذلك وهي فتاة غضة الإهاب تنأى بها ظروف لا حيلة لها فيها الآن على الأقل عن الزواج وتتقاضاها هذه الظروف عينها أن تبقى عفيفة محصنة ؟ شبابها وجنسها يأمرانها أن تنشد الحب وأن تنشد به الحياة والنسل ، والدنيا تأمرها أن ترفض هذا ، وأن تخرس اللسان الذى يدعوها إليه ، وتضع أصابعها فى مسمعيها دون الصوت الذى يناجيها به : وأى لسان ، وأى صوت ؟ إنه لسان الجمال الذى يعيدنا جميعاً وصوت الحياة التى تسخرنا ولا ترحمنا ولا تعفينا ولو مقدار ثانية من الإذعان والامتثال . فكر فى هذا ثم أنكر وهز رأسك بعد ذلك إذا استطعت » .

وبعد إطراقة قصيرة أخرى :

« وتالله ما كان أقسانى عليها ، وأعنفنى بها ، وأقل ترفقى بهذا القلب الجديد ، حين قلت لها وقد ساقنى الحديث إلى ذلك «أن فى وسعك أن تستغنى عن زوج بل أنت لا معدى لك عن ذلك ولا خيار لك فيه ، ولكنه ليس فى مقدورك أن تستغنى عن رجل » . ولقد لبثت بعد ذلك وقتاً أعتذر عن نفسى من هذه القسوة بالقول بأنى أحسنت إليها بالعبارة عما فى نفسها وبأن دللتها بكلامى هذا على مكان الجرح من قلبها ووضعت أصبعها عليه ، ولكنى أخشى جداً أن أكون قد نكأته ! » .

— « وماذا كان جوابها ؟ »

— « لم تجب بشىء سوى نظرة طويلة إلى الفضاء ! وماذا كنت تتوقع منها ؟ أن تنكر أن لها جنساً ! ولقد خاصرتها وأنا أعود بها فى هذا الطريق بعد أن انحدرت الشمس فلم تنح ذراعى عن خصرها ولم تتحرك لذلك شعرة واحدة فى بدنها ! فكأنى كنت مطوقاً بذراعى الحى هذه دمية لا تستطيع أن تحس حراراته » .

— « وماذا أنت منها الآن ؟ إنى أخشى . »

— « وماذا أنا منها ؟ لا شىء على الخصوص ! أحب أن أراها من حين

إلى حين وأن أستشف نفسها وأطلع من عينيها على المغيب فى ضميرها . وسم ذلك حباً إن شئت ، أو سمه لهواً فما يعنيني كيف تصفه ، وما أعرفنى عبأت قط بهذه الألفاظ . ولكنى لا أكتمك إنى أعطف عليها وأرثى لها وأحسبنى إنما أعطف على نفسى فى شخصها فإن بى منها مشابه . غير أن بيننا حوائل تتعاظم المجتاز ، وجوناً عريضاً يعيى ساقى أن تتخطياه . وليتنى أدرى كيف أحييها وأرد إليها روح الشباب الذى تقمعه الأيام قبل الأوان ! ولكنى كبرت واأسفاه . وفقدت أنفاسى حرارتها .. والنساء عندى كتب تقرأ وموضوعات تدرس لا جمال يعشق . ولقد كنت فى زمانى شاعراً أو شبهه ، وكان للدنيا بنفسى حلاوة ، ولكنى أصفيت بعد أن نضب معين الشباب وعدت كما تقول يا صاحبى «كأنى من دمائى أشرب» .

قلت «قم بنا عن هـــذا المـكان فقد أوجعت رأسى وسودت الدنيا فى عينى . تالله ما أجهلك بالدنيا وبصاحبتك» قال : «لقد كان لا بد لى من مكاشفة صاحب بما فى نفسى وقد فعلت ، فاستحمقنى إذا شئت ، ولكن خل رأيك لنفسك فما أحفله كيف يكون مادمت أجهله» .

ونهضنا نعود فسمعته يقول فى بعض الطريق «لقد كبرت». ولا أدرى كيف حدث منى هذا : ولكنى رأيتنى أبتسم وأدفع ذراعى حول خصره وأطوقه بها فانتفض مذعورا وصاح بى «أيها الشيطان اللعين» .

نشأة الشعر وتطوره

كنت فى ليلة أقلب ديوان ابن الرومى وأدير عينى فى صفحاته متأملا ورقها دون ما حوته من الشعر ولم يكن مرادى أن أقرأ شيئاً بل أن أحول بين العين والمطالعة ، وكانت الرغبة فيها شديدة لكن الأطباء يعظوننى أن أجهد عينى بالقراءة على ضوء المصابيح . وما أدراك ما الأطباء هم الذين يقول فيهم اديسون على ما أذكر ، إن المغول والتتار كانت غاراتهم كثيرة قبل أن يعرفوهم فلما ظهر الأطباء بينهم وكثروا — إلى حد — عندهم انقطعت الغارات ! ! ولنرجع إلى صاحبنا ابن الرومى فنقول إنى بينما كنت أجيل عينى فى ديوانه غير معتمد شيئاً على التعين استوقفنى قوله من قصيدة يهجو بها البحترى وكان معاصراً له :

قبحاً لأشيـــــاء يأتى البحترى بهـــــا
من شعره الغث بعد الكد والتعب
كأنها حـــــين يصغى السامعون لها
ممن يميـــــز بين النبع والغـــــرب
رقى العقارب أو هـــــذر البناة إذا
أضحوا على شعف الجدران فى صخب

ولا نعرف ما رقى العقارب ولكننا نعرف ما يعنى بهذر البناة على شعف الجدران فهى ما ينشدونه ويرددونه أثناء عملهم من الأغانى الساذجة وقد ذكرت لما قرأت هذا ، بالليلة يوماً وبالبيت موضوعاً له قيمته فى نشأة الشعب . فأما اليوم فكان فى الأقصر منذ عامين وبضعة أسابيع وكنا — أنا والأستاذ الدكتور حسين بك هيكل — فى معبد الملكة حتشبسوت فيما يسمى الآن « الدير البحرى » وهو معبد منقوب فى الجانب الشرقى

من وادى الملوك وممتد شرقا إلى الصخور التى تفصل الوادى عن سهل طيبة . إلى هذا المعبد أقلتنا مركبة ذات عجلات عريضة هى شر مايحمل إنسانا فوق تلك الأرض الصخرية . وكان النهار قد انتصف فاتخذنا من الحجارة كراسى ومن صخرة ضخمة هناك مائدة تناولنا عليها طعامنا بين أعمدة البهو الأسفل عند مدخل المعبد وحولنا رسوم ونقوش محت الأيدى والأيام بعضها ولم يبق منها واضحاً سوى صف من الجنود يحملون عدا السلاح أغصاناً وألوية يقابلهم فريق من الرماة وإلى اليسار صور قصابين وكهنة يعدون الضحايا والقرابين وفوق هؤلاء وأولئك زوارق تنحدر على النيل وفيها مسلات . فلما أصبنا حظنا من الطعام رقدنا على الأرض وأسند كل منا رأسه إلى حجر سد مسد الوسادة . وإنا لكذلك وإذا صوت فضى النبرات يصافح آذاننا فراعتناحلاوته وضاعف حسن وقعه ما يحيط بنا فى هذا الوادى القفر من الأطلال وما تثيره فى النفوس من الخوالج والذكريات وسألنا الحارس فقال هؤلاء عمال يحفرون الأرض ويرفعون التراب عما يظنه مستأجرهم أثراً أو قبرا ، وعادتهم أن يغنوا وهم يعملون فاعتدلنا حيث كنا وجعلنا بالنا إلى هذا الصوت وكان صاحبه كلما غنى شطراً أجابه جمهور الفعلة ورددوا على أثره جملة لا تكاد تختلف يعيدونها ويرجعونها بعد كل وقفة منه . وكان الوزن ظاهراً فيما يغنى الصبى وتعيد الجماعة فحاولت أن أدون ما ورد سمعى من ناحيتهم ولكن بعد ما بيننا وبينهم حال دون الدقة فى النقل وضبط فى الرواية وعلى أن ما أثبته من ذلك قد ذهب لا أدرى أين ؟

وهذا كل ما اهتديت إليه :

أنا أجول للزين سلامات   على حسب وداد جلبى

خيط الهوى على الباب   جلت الحبيب جـــانى

أتاريك ياباب كبداب   تنهـــد من عـــالى

ولقد كنت أحب أن أورد للقارىء سطوراً أخرى من ذلك ليس أعون منها على تبيين ما أريد أن أقول غير أنه يعزيني عن فقد ذلك أن القارىء لا يعيبه أن يجد بديلا يقوم مقام ماضاع منه ، وما عليه إلا أن يلاحظ النوتية وهم يعملون فى زوارقهم أو سفنهم أو العمال وهم ينقلون الأحجار أو يحفرون أرضاً أو يجرون ثقلا أو نحو ذلك فإنهم فى أكثر الأحيان يغنون ويتسلون بمثل ماكان جماعة العمال فى طيبة يغنون ويتسلون ، وأكثر ماتجد ذلك فى القرى النائية عن الحواضر وفى حينما يحتاج العمل إلى أيد كثيرة تشتغل معاً وفى وقت واحد غير أن هذه الأغانى ليس لها ضابط أو صورة نهائية . إذ هى لا تنفك تتغير ولا تثبت على صورة واحدة بل تنشأ وتتحول ويطرأ عليها جديد يوقع على أنغام قديمة أو تغنى مقاطيع منها قديمة على ألحان جديدة . وقد يثبت ما يردده المشتركون فى الإنشاد ويتغير ما يغنيه الفرد ، وفى وسع المغنى الذى يكون كالزعيم للجماعة أن يبتكر ما يشاء ويرتجله وأن يستحدث فى المأثور الذى يحفظه ويقدم ويؤخر فيه ويمضى فى ذلك كله إلى غير غاية مستمداً من ذاكرته أو من وحى الساعة أو من إلهام العاطفة التى تتملكه أو من هاتيك جميعاً . فليس أسهل من الارتجال فى مثل هذا الموقف . والقارىء إذا تدبر عصور الشعر العربى خليق أن يتبين منها أن الارتجال يكثر فى أولاها أى فى العصور التى يكون الناس فيها متقاربين متشاكلين لا يتميز بعضهم عن بعض كثيراً . والمرء إذا ألفى نفسه بين أترابه وأنداده اطمأن وأرسل نفسه على سجيتها لأنه فى هذه الحالة يضمن المقدار الكافى من التعاطف إذ كان بين مماثلين له :

وهذه الأغانى التى نتكلم عنها كثيرة فى المدن والقرى وإن كانت فى القرى أكثر منها فى المدن . ولكن ما أقل مايستطيع المرء أن يدون شيئاً منها على أنه مثال لها وعنوان عليها ! ذلك أنها كالتيار العام قطرة منه أو ملء ما شئت عمقاً واتساعا ، ليس بالتيار ! كذلك يكتب أحدنا مقطوعات يسمعها من هذه

الأغانى القديمة المتجددة كموج البحر فإذا هو لم يفز بشىء لأنها لا تستقر على حال ولا تثبت كما أسفنا على صورة .

ودع الحاضر وارجع إلى الماضى وصور لنفسك جماعة من الناس لا يزالون على الفطرة لم يأخذوا من المدنية بنصيب ولم تقسمهم الصفات الشخصية والملكات العقلية طوائف ولم يفرق بينهم اختلاف المراتب وتباين الأعمال وتعدد الآراء . وتلك مرتبة من الحياة لا تكون فيها أبواب التعبير الطبيعى موصدة ولا يجهل فيها المرء — أو لا يحس أنه يجهل — ما يجرى فى ذهن جاره أو رفيقه ولا يستحى أن يعرب عما يجول فى خاطره ويجيش به صدره مخافة أن لا يفوز بالعطف والتقدير إذ كانت حدود الفرد هى حدود التقاليد المشتركة بين الجماعة كلها . فى هذه المرتبة من الحياة كيف تكون نشأة الشعر ؟ يكون — كما هو ظاهر بالبداهة فيما نظن — عملا من أعمال الجماعة كلها وملكا لها لا لفرد ، ويجىء تالياً للرقص والغناء وتابعاً لها ومتفرعاً عنهما وغير منفصل منهما فإن شككت فى أن الأمر لابد أن يكون كذلك فقل لى أيهما تظن كان أسبق فى تاريخ الإنسان : الحركة أم اللغة ؟ نحسب أن الجواب على هذا لا يمكن أن يتعدد ! فإن الإنسان قد صدرت عنه الحركات قبل أن يعرف أن له لساناً يمكن أن يكون أداة لنقل الإحساس أو الخاطر إلى زميله الإنسان فالحركات البدنية أسبق من اللغة على التحقيق . ولكن هل الوزن كذلك ؟ تقول نعم ولا تتردد لأن الوزن ليس شيئاً سوى الانتظام فى الحركات فهو أشد ارتباطاً وأسهل مسافة لحركات الجسم ، وما زالت الإشارات والحركات من متممات التعبير اللفظى إلى الآن ، واللغة ليست إلا أداة للتعبير تحل تدريجاً محل ما كان قبلها هو الأداة لهذا التعبير ، لأن العبارة عن العاطفة بالحركة الموزونة على تدفقها ، أسهل — ومن أجل ذلك كانت أسبق — من العبارة بالألفاظ التى انتظمت بها الأصوات وتعينت واستقرت على معانٍ صارت محدودة مألوفة . ومتى انتظمت

حركات المجتمعين واتزنت على مقتضى العاطفة المشتركة بينهم — لفرط تماثلهم — كان من المعقول بعد ذلك أن تخرج الألفاظ مستوية فى ترتيبها على وزن هذه الحركات ، وعلى ذلك يكون أول ما عرف الإنسان من الشعر هو عبارة عن لحن موزون يند عن أفواه المجتمعين إذ كان جارياً على ما تتطلبه وتؤدى إليه الحركات التى يشتركون فيها ويؤدونها معا على نسق واحد وعن عاطفة عامة شائعة بينهم على السواء ، وليس من الضرورى ولا من المفروض أن يكون لهذا اللحن معنى معقولا لأن كونه معقولا أو غير معقول مرجعه إلى الفكر ، ولكن العاطفة أسبق فى تاريخ النشوء الإنسانى من الفكر .

إذن كان الشعر لأول ما عرفه الإنسان ألفاظاً مجموعة تكرر ، وأسماء تتخلل الألفاظ ، وعبارات لها قيمتها الإيحائية عند الجماعة لا أكثر ، على الأرجح ، وصرخات تند بين ذلك ، مصبوباً كل هذا فى قالب موزون على حركات الجماعة فى حفلاتها المختلفة لمناسبة زواج أو وفاة أو غير ذلك ومعقول أن تكون الاشـــارات أو التلحين أبرز من سواهما فى هذا الطور الساذج .

ثم ماذا ؟ ثم ياسيدى نجد عامل جديد يؤدى إلى التطور . كانت الجماعة متشاكلة الأفراد ولكن التميز يحدث ، ويقوى الشعور بالذات شيئاً فشيئاً ويزداد الإحساس بالاستقلال ويبرز الفرد تدريجاً ويأنس من نفسه مالا يأنس غيره من نفوسهم فلا يقنع بأن يبقى فى حلقة الجماعة يردد ما يقولون وليس له من الشأن إلا مثل ما لكل منهم ، ويندفع مجترئا على التقاليد — لأنه لا يسعه إلا هذا — ويعلو بصوته أصواتهم فيروعهم فتخفت أصواتهم قليلا ويمضون فى حركاتهم ولكن عيونهم تتعلق به وآذانهم ترهف له فإذا به تستحدث مالا عهد لهم به ويدخل على ما كان قصاراهم أن يفعلوه ، حواراً مرتجلا يقص به قصة ساذجة بطبيعة الحال . فيحسن وقع ذلك فى نفوسهم ويطيب لهم أن ينصتوا ولكن الطفرة محال كما يقولون فلا يصمتون

كل الصمت بل يتعلقون بعبارة مما يسمعون منه فيرددونها وراءه كلما سكت . وليست هذه بالخطوة القصيرة . فقد كانت الجماعة قبل ذلك هي المؤلفة للأنشودة – إذا جاز إطلاق هذا اللفظ على ماكانوا على الأرجح يتصاخبون به – وليس للفرد الأمثل مالسواه من الفضل . ولكن الجماعة بعد الآن بدأت تقتصر على الرقص والإشارات وتجتزىء بسماع مايصيبه فرد فى آذانها وبترديد عبارة معينة لا تعدوها وصار عمل الفرد فى ابتكار القصة أو الحوار أبرز وأظهر وهو يروى ويقول ما تحضره الظروف فى ذهنه وتجريه فى باله وعلى لسانه ، وهى تكتفى مماكانت تقوم به بمشاركة هذا الفرد فى حالته النفسية وبترديد ما يوكل إليها ترديده .

ثم تتوالى الخطوات متتابعة متلاحقة كالعلة تدور بصعوبة فى مبدىء الأمر ثم تزداد إدارتها سهولة بعد ذلك . فيتضاءل عمل الجماعة من الاشتراك فى التأليف إلى الاقتصار على الترديد إلى صيرورتها معينة بحركاتها للفرد على المحافظة على الوزن ونمثل لذلك بفرق المغنين عندنا . تجتمع طائفة منهم هذا بعوده وذاك بقيثارته وذلك بقانونه أو مزماره وغير هؤلاء بحناجرهم ! ثم يفتتحون العمل بتوقيع موسيقى لا يصحبه غناء ثم بموشح يوقعونه ويغنونه معاً حتى إذا انتهوا من ذلك شرع زعيمهم يغنى صوتاً ينفرد هو بأكثر مقطوعاته ويشترك معه الباقون فى بعضها وقد يغنى بعد ذلك موالا لا يشاركه فى غنائه أحد ولكن يظل ينقر له الموسيقى على وتر معين ليساعده على الاستمرار على تصور الصوت وعدم الخروج عنه . وليس هذا سوى مثل ضربناه تقريباً للمسألة من الإفهام لا لنقيس هذا على ذاك .

وهكذا يختفى أثر الجماعة تبعاً للتطور ويظهر الفرد حتى إذا تألفت تأليفاً سياسياً وانتقل بذلك مركز الثقل ظهر الشاعر الفنى المستقل عن الجمهور وصار أمر الشعر كله إلى الفرد وأصبح هذا الشعر ديواناً تقيد فيه الأخبار وتسجل حوادث التاريخ وأعمال الأبطال فيتسع الأفق ويرحب المجال أمام

الشاعر ويغشى غمار الحرب والسياسة بعد أن كان لا يلم قديماً فى شعره بغير المرأة ، ويركض فى حلبة الحوادث العامة التى تمس حياة القبيلة أو الأمة ولا يقتصر على ما له علاقة بالأسرة أو النفس . وهكذا . .

والجماهير يبقى لها شعرها الخليق بمستواها . ولكنه لا يتقدم ولا يترقى . لأن مستوى الذكاء المتوسط يمنع شعر الجماهير أن يعلو ويسمو . وهذا هو حده . أما من يمتاز من الأفراد عن هذا المستوى ويرتفع عن طبقة الجماهير وحاجاتها وأذواقها فلا يبقى له محل إلا بين من يستطيعون أن يقدروا مزاياه التى انفرد بها وخلت به عن الجماهير . وإن أحدنا ليسمع الأنشودة فى الأقصر ويسمع أخرى فى القاهرة وثالثة فى غير هاتين المدينتين فلا يملك إلا أن يحس كأن واضع هذه وتلك واحد إذ لا خلاف ولا فرق إلا فى النطق وإلا فيما تدعو إليه الأحوال المحلية التى لا تقدم ولا تؤخر ولا تمنع التشابه بل التطابق فيما هو جوهرى .

المـرأة واللغـة

أول معجم وأقدم ديوان

يقول شاعر قديم :

كتب الحرب والقتال علينا   وعلى الغانيات جر الذيول !

وبهذا البيت المفرد لخص وظيفة الجنسين فى نظره أوجز تلخيص وأقربه إلى الصواب وأشبهه بالحق . ولكن القافية جنت على المرأة وساعدها فى جنايتها عليها وظلمها لها تعصب الرجل لجنسه . ولعله بعد لم يعد ماكانت عليه الحال فى زمنه ، أو لعله لم يقصد إلى المقابلة بين وظيفة الرجل فى الحياة ووظيفة المرأة فيها وإنما أراد أن يؤكد عظم ما هو موكول إلى الرجل ويجسم خطره ومشقته ويبرزه فى أقوى صورة بأن يرفع قبالته ظاهر ما تكون عليه المرأة من خلو البال وفراغ اليد والاطمئنان والتنعم بمجهود الرجل . وعسى أن يكون قد شكا وتضجر من حيث أراد أن يباهى ويفخر ، غير أنه على أى وجه قلبت بيته وإلى أى تأويل أخرجته ، قد ظلم المرأة وغمطها حقها وجنف فى حكمه وقسا عليها فيه وليس فى مقدورنا أن ننصفها نحن من كل وجه بمقال واحد ولكنا على هذا سنحاول أن نصف بعض ما قامت به فى تكوين هذه اللغة وفى تمكين رصيفنا القديم من إرسال بيته هذا الدائر على الألسنة إلى يومنا الحاضر . وما إلى ذلك من سبيل بغير أن نرد عقربى الساعة بضع مئات أو آلاف من السنين علمها عند ربك ، وأن نكر راجعين إلى تلك الأيام البعيدة التى كانت الجماعات الإنسانية فيها ساذجة . أيام كان مكتوباً على الرجل أن يخرج للصيد والقنص ، والقتال أيضاً كما يقول شاعرنا ، وعلى المرأة أن تقيم فى مكانها لتعد الطعام ولتغزل وتهيئ الجلود وتصنع الأوانى وتأتى بالماء وتبنى الأكواخ وترضع الأطفال وتقوم على تربيتهم

بينما يغشى الرجل الأحراش والأدغال والغاب ويفترع الجبال وينحدر إلى الأنهار .

ولنفرض الآن أن الحرب نائمة وأن الجماعة تزاول شتى أعمالها فى أمن وسكون . فى مثل هـــذه الأوقات يصبح الرجل فيحتمل أدواته كائنة ما كانت ويذهب إلى الماء لصيد الأسماك أو يصعد فى الجبل أو يمضى إلى الغابة ليقنص الحيوان . وقد يخرج الرجال فى طلب الصيد بأنواعه زرافات ولكنهم لا يلبثون بطبيعة الحال أن يتفرقوا ويتشتتوا ولو قليلا ، ويضطرهم ما هم فيه إلى الصمت أكثر الوقت لأنهم وهم يجوسون الأرض على الطريدة مكرهون أن يخففوا الوطء وأن يمنعوا الجلبة وأن يكتفوا حين يريدون التفاهم فيما بينهم باللمح والإشارة على الأكثر حتى لا يزعجوا الطير أو الحيوان فيفلت منهم وينجو . والمفاجأة هنا نصف الظفر=ولا يكون الكر منجحاً إلا بتحريها وقديما قال ابن الرومى :

وليكن الـكر على غرة والصيد فى مأمنه سارب

ومن أجل هذا لا يحسن بهم أن يتلاغطوا كأنهم فى سمر فلا معدى لهم عن الصمت فى غاراتهم ولوكانوا كردوساً متلاصقاً ليصيبوا الغرة ويقعوا على الفريسة . وليس معنى ذلك أنهم لا يتكلمون قط بل معناه أنهم أكثر ما يكونون فى صمت يتواصون به ويلزمونه حتى يقضوا وطرهم ما ساعفتهم القدرة على الصمت وأطاقوه لأن طبيعة المهمة تقتضى ذلك وتحتمه إلى حد كبير . أما قبل أن يبلغوا مكان الصيد فهم يتلاغطون ويتضاغون ويعربون ما استطاعوا عن آمالهم التى يرجون أن يبلغوها فى يومهم وعما يقدرون لأنفسهم من اللذة والمتعة فى السعى وراءها وعما يتوقعون من سرور نسائهم وصغارهم حين يعودون بأكف ملأى وعياب محشوة وقامات معتدلة ورءوس مرفوعة ، وقد يصف بعضهم لبعض

ما كان فى يوم سابق وربما تضاحكوا بواحد منهم عثر وانكب على وجهه وهو يعدو وراء الطريدة أو رفسته فخر إلى الأرض أوانكسر به غصن فهوى وتدحرج ، وأما وهم عائدون فقد يغنون ويرقصون سروراً بما أصابوا ويتحدثون بفعالهم — هذا بسرعته وذاك بإحكام رميته وذلك بجرأته ورابع بكثرة ما أصاب وهكذا حتى إذا بلغوا محلتهم ألقى كل منهم إلى المرأة وبه من الزهو ما يصده عن الكلام أو من التعب ما يغريه بالانصراف عنه والتماس الراحة . ولكنهم فى أثناء الطرد والصيد يصمتون أكثر الوقت كما قدمنا ولما كان الصيد يستغرق أكثر النهار فهم أكثر النهار قليلو الكلام . !

وندعهم فى صيدهم ونعود إلى المرأة . فإذا بها بين أترابها لا يضطرها عملها إلى الوحدة . فهى على الأغلب تباشره فى جماعة منهن قليلة أو عديدة وفى يد كل منهن عملها كائناً ما كان وهن فى أثناء ذلك لا تستريح ألسنتهن فى حلوقهن ولا تنقطع عن الجرى . كعادة النساء فى كل عصر ومصر . فإن النساء أكثر كلاما من الرجال . وقد يجلس الرجل إلى صاحبه وينقضى أكثر الوقت بينهما وكلاهما مطبق الفم . أما النساء فهذا هو المستحيل عليهن ! ومتى جلست امرأتان فى هذه الدنيا صامتتين ؟ إن المرأة لا تصمت ولا تكف عن الكلام إلا إذا عجز لسانها عن الجرى وانقطعت أنفاسها لأن الكلام لا يكلفها نصبا عقليا ، وإن الرجل منا ليشهد مجالس النساء فلا يسعه إلا أن يعجب لهن من أين يأتين بمادة الحديث ! لقد كنت أعد نفسى فى الرجال مهذاراً كثير الثرثرة فإذا بإحـــدى السيدات الفضليات، تزعمنى صموتا ! ؟ . وما أكثر الرجال الذين يشكون من متاعبهم العائلية عجزهم عن مواصلة الحديث الفارغ وتقصيرهم فى واجب الثرثرة !

واللغة الكلامية إنما تتقرر وتصقل ألفاظها بالتكرار ، وليس يكفى أن ينطق فرد بكلمة أو ينحتها ويستعملها مرة وإنما تشيع اللفظة ويعم استعمالها بتكرر الحاجة إليها وكثرة ترديدها من جراء ذلك . ولقد نحت جونسون الكاتب الإنجليزى المشهور مئات من الألفاظ من اللغة اللاتينية واستعملها فى كتاباته وعادل بها عما يؤدى معناها من الكلمات الإنجليزية المستعملة وآثرها عليها لموافقتها لمزاجه ولما فيها من الطنطنة المرضية لذوقه .

ثم مات جونسون وذهب فى سبيل من غبر فدفنت ألفاظه التى نحتها معه ولف عليه وعليها كفن . ولم يعش بعده منها إلا النزر الذى سد حاجة وملأ فراغاً . وكم فى لغتنا العربية مثلا من ألفاظ يخطئها الحصر لا تدور على الألسنة ولا تجرى بها الأقلام ؟ كم يستعمل حتى أشد الناس حذلقة من هذه الألفاظ الميتة ؟ ماحاجتنا إلى خمسمائة اسم للسيف أو صفة له على الأصح ونحن لانكاد نذكر السيف ؟ فموافقة اللفظ للحاجة وتكرر استعماله ولوكه مرة بعد أخرى . هذا هو الذى يذيع اللفظ ويشيع استعماله ويجعله مادة حية فى اللغة . وفضل النساء فى ذلك عظيم . هن الثرثارات اللائى يخدمن اللغة ويقررنها بالتداول ويشعنها فى الجماعة ويدرنها على ألسنتها ويثبتنها فى الذاكرة . يجيء إليهن الرجل بقنصه ويقص عليهن ماجرى له فى يومه وقلما يعيد القصة ولكن المرأة تحكيها لأترابها مائة مرة ومرة وعلى مائة صورة وصورة ، تارة بإفاضة وأخرى بإيجاز وطوراً توشيها بأخيلتها الحسية وطوراً تطرزها بوصف هيئة الرجل وهو يلقى قصته ، أو بنعت ماتقدره فيه من المزايا والصفات وتخرج من ذلك وتستطرد إلى مائة موضوع آخر قد يعيي الرجل أن يلمح الصلة التى تربط هذه المواضيع بالحكاية الأصلية . أضف إلى ذلك ما لا تفتأ تتحدث به عن عملها أو أعمالها هي وأكثرها فى الأطوار الأولى من نشوء الجماعات الإنسانية صناعى

أو أدخل فى باب الصناعة مما عداه . والأطفال ؟ أليس يدع الرجل أمر تعليمهم الأول إلى المرأة ؟ هى التى تغذى الطفل وتنشئه وتعامله الكلام بما لا تنفك تصبه فى أذنيه من عبارات لها معنى أو ليس لها معنى . وتنعم له ذاكرته بالمحصول الأول من اللغة وتعدله أول مايلزمه من الذخيرة فى رحلة حياته . فليست المرأه فقط عاملا لا يستهان به فى تقرير اللغة الكلامية وصقلها بل هى أيضا أول معلم نتلقى هذه اللغة عنه ونحذقها منه .

ولا نريد أن نقف هنا أو نقتصر على هذا بل نجاوزه ونقول إن المرأة من أكبر عوامل التوحيد فى اللغـات أو التشابه بينها . ذلك أن المرأة لم يكتب عليها الحرب والقتال كما يقول شاعرنا القديم . وإنما كتب ذلك على الرجال دونها . ولم يتصل بنا ولا قرأنا أن النساء فى أى عصر كن يقاتلن إلى جانب الرجال ويتولين الحرب مثلهم . ولكنهن مع ذلك كتب عليهن السبى . يلتقى الجيشان ويقتتلان ما شاءا حتى يقهر أحدهما خصمه . وليس يندر ولا سيما فى الحروب القديمة أن يعمل الظافر السيف أو ما يقوم مقامه من أدوات الطعن والضرب فى أقفية المنهزمين وأن يتعقبهم إلى ديارهم وأن يقتل منهم حتى من يضعون السلاح ويسلمون . ولكنه ندر أن يقتل المنتصرون النساء وإنما يسبونهم ويحملونهن معهم فى عودهم إلى محلاتهم فى جملة ما يحملون من غنائم الحرب ويقتسمونهن اقتسام غيرهن من الأسلاب .

وقد كانت الحروب فى الأزمنة السابقة أكثر وإن لم تكن على هذا أفتك أو أهول منها الآن وقل أن كانت تنتهى حرب بدون سبى . بل لعلنا لا نخطىء جداً حين نقول إن الرغبة فى السبى كانت من أكبر مثيرات الحروب وبواعثها .

فهل يحسب أحد ان الخود اللواتى كن يسبين فى حروب آبائنا الأقدمين كانت تقطع ألسنتهن وتقتلع من أصولها أو توضع على أفواههن

الكمائم ؟ لسنا نظن أحداً سيدعى ذلك أو يقول به . وكيف كان يحدث التفاهم بين المسبية ومن صارت من نصيبه ؟ كان يستعصى ذلك فى أول أيام المعاشرة وكانت الإشارات والحركات وملامح الوجه ونظرات العين تغنى فى ذلك بعض الغناء ثم يعتاد كل منهما أن يقرن اللفظة التى يسمعها بالحركة أو الإشارة أو النظره أو غير ذلك مما يصحبها ويفهم منها ما يستخلصه من اجتماع ذلك . فيزيد محفوظه ومحفوظها ويدخل فى لغتها ولغته الجديد من الألفاظ والأوضاع وطريقة التعبير يؤدى ذلك مع التكرار إلى التقارب من بعض النواحى بين اللغتين .

ولقد ذكرنا الحرب ولكنها لم تكن الوسيلة الوحيـــدة لإحداث هذا الإختلاط والتشابه بين اللغات . فقد كانت الهجرة كثيرة والخطف مستمرا ولما كانت المرأة بطبيعتها أو بطبيعة وظيفتها أكثر كلاماً من الرجل وكان نطاق أحاديثها أوسع ومادتها أوفر وكان سببها أعم لذلك كان من المعقول أن تكون المرأة صاحبة الفضل الأكبر فى بذر الألفاظ وماتنطوى عليه من الإحساسات والخواطر .

وحتى هنا لا نريد أن نقف . فإنه ليس يكفى أن تخترع اللفظة أو تنحتها أو تشتقها لما تمس الحاجة إلى العبارة عنه . فإن الاحتفاظ بهذه اللفظة الجديدة لازم للغة مثل اختراعها أو اشتقاقها . وليس تغنى اللغة وتبقى لها ثروتها إلا بهذا الاحتفاظ ولا أعون على ذلك من المرأة . . ولا تنس أن كلامنا كله دائر على الماضى البعيد لا على الحاضر ولا الأمس القريب . وكما أن المرأة كانت أحس معاجم اللغة ، وكذلك كانت أداة المحافظة عليها وتوريثها الأجيال التالية . ذلك أن المرأة هى التى قامت بالصناعات اللازمة للإنسان بينما كان الرجل يتولى الصيد ويباشر الحرب . وهذه الصناعات بقيت على الأيام لأنها من ألزم اللوازم الأولية ، وقد طرأ عليها تحوير كثير وتولدت منها أخرى وتعددت وتنوعت ولكن الحقيقة بقيت دون أن يلحقها تغيير . وهذه الحقيقة هى أن المرأة هى مخترعة الصناعات

الأولى : ومن غير المعقول كما أسلفنا أن تزاول المرأة أعمالها يوما بعد يوم دون أن ينحدر لسانها بالكلام على ما تفعل . بل المعقول والذى لا يقبل سواه هو أنها كانت تهضب بالكلام وتسح بلا انقطاع وأنها سمت الأشياء أسماءها وأوجدت لها نعوتها وأفتنت فى ذلك وما هو بسبيله إلى المدى الذى استطاعته . ولما كانت أعمالها مستمرة متوارثة فقد ثبت معها ما تعاق بها من الكلام وصار جزءاً أصلياً من اللغة وأتيحت له فرصة البقاء وقديماً لاحظوا أن المرأة على فرط شغفها بالجديد وجريها وراءه وتعلقها به ، أكثر « محافظة » من الرجل . ولعله ليس من الخطأ الشديد أن نقول أنها كالذاكرة للنوع . وحسبك أن تتأمل فضلها فى المحافظة على الأساطير والخرافات وأغانى الجماعة وأقاصيصها وحكاياتها . ومن من الرجال يحفظ مثل ماتحفظه المرأة من الأغانى والأساطير ؟ إن القارىء خليق أن ينصف المرأة من هذه الوجهة إذا تفضل وذكر جلسائه إلى إحدى العجائز فى طفولته وصدر أيامه وإلحاحه عليها فى أن تقص عليه بعض ماتحفظ من الأساطير والحكايات المروية عن العفاريت والمردة والوحوش وما إلى ذلك . وهى التى تغنى للطفل لينام أو ليكف عن البكاء أو ليهدأ وتسكن نفسه كما لا يحسن الرجل أن يفعل ونحن الآن فى عصر المطابع فلا يسعنا أن نقدر على وجه الدقة قيمة ذلك فى العصور الخالية قبل أن توجد المطابع بل قبل أن يهتدى الإنسان إلى طريقة يكتب بها الكلام ويدونه فى تلك العصور كانت المرأة هى ذاكرة الجماعة ومكتبتها وديوان أخبارها وأغانيها وأمالها وحكمها إن كان لها من ذلك شيء قليل أو كثير : وما زلنا إلى الآن نرى المرأة أحفظ للأمثال وأشد إحاطة بها . وإذا تدبرنا ذلك كما ينبغى أن نتدبره أفيكون مخطئا من يقول أن المرأة كانت من أكبر

العوامل فى المحافظة على اللغة وفى صون ثروتها ومساعدتها على الاتساع والنمو تبعاً لذلك ؟

هذا وجه أو وجوه مما كان للمرأة من الفضل على اللغة . ثم وجوه أخرى بعضها يسهل الغوص عليه والبعض يشق مطلبه ويعز مناله . ولسنا نستطيع أن نلم بكل أوجه البحث فى مقال واحد ولذلك نرجىء التتمة ولاسيما الفرق بين لغتى الرجل والمرأة ، إلى فرصة أخرى .

بين السماء والأرض

كأس على ذكرى

قالت الفتاة لالفتى – إن كان ابن خمس وثلاثين يعد فى الفتيان « هذا أنا . . . قد جئت . . . »

فمد إليها يده ، ولكنها لم تصافحه ، فقال :

« أهو كبر ما بنا أم جفوة ؟ » .

« لا كبر ولا جفوة . . . وإنما أنا مغيظة » .

« منى ؟ » .

« كلا ! » .

« ممن إذن ؟ » .

« لماذا تسأل ؟ . . . من نفسى . . . » .

« مسكينة يافتاتى ؟ وماذا صنعت مما يورث كل هذا الأسف » .

« لست آسفة على شىء . . . وهذا ما يغضبنى ! ولو وجدت للأسف مسا لكبرت فى عين نفسى . . » .

وكانت الليلة مظلمة والرياح كالمجنونة ، ولا يكاد أحدهما يحس من صاحبه – وهما مستندان إلى سور السطح – غير صوته ، فقال :

« أنت فى عينى كبيرة وجليلة » .

فلان ماكان متجمداً من نظراتها ، وسلس الصعب من جانبها ، ورقت حاشيتها وانسجم صوتها ، ودنت منه ووضعت يمناها على كتفه وأقبلت عليه

تسائله أصحيح ما يزعم ؟ أحق أنه يكبرها وسيظل يكبرها على الرغم مما فعلت ومما تفعل ؟

فقال ، وتناول يدها في يده :

« وماذا فعلت يا فتاتي أو ماذا تفعلين الآن أكثر من أنك قد جئت تؤنسين وحشتي تحت عيون هذه النجوم ؟ » .

فرفعت وجهها إليه ورمته بعين مفتوحة كمغمضة وقالت :

« أو هذا كل شيء ؟ » .

« كل شيء الآن . . . إلى الآن » .

ولبثا هنيهة صامتين تحت هـــذه السماء المهولة المتلامحة النجوم ، ثم قالت :

« ماذا كنت تريد أن تقول لي ؟ » .

« متى ؟ »

« ونحن على الطعام ؟ »

فأربد وجهه ولكنها لم تره في ظلمة الليل ، ولم تدر ماذا عاني حتى عاد محياه يرف لها بينما كانت هي تجذبه من كتفه وتلح عليه بالسؤال :

« كنت أريد أن أقول إن هذا لذيذ » بابتسامة متكلفة .

« ما هو ؟ »

« كون يدك في يدي ! »

فانتزعتها وقالت :

« لقد أنسيت أنها في يدك »

« إنسيها مرة أخرى ! »

« لا أستطيع »

« تناسيها أذن ! »

« كلا ! »

« هل من سبب ؟ »

« لا ! » مطرطة طويلة .

وتناول يدها وسكتا مرة أخرى وتكلم بينهما الهوى .

❊ ❊ ❊

وقالت « لن أفعل هذا مرة أخرى ؟ »

« لن تفعلى ماذا يافتاتى ؟ »

« ألقاك هكذا ! هى الأولى والأخيرة ! »

فابتسم صاحبها ابتسامة فيها من الحنان والعطف عليها وعلى نفسه أكثر مما فيها من صبابة الحب وقال :

« لا أدرى أى سحر ضربته على حتى صرت ، كلما عزمت أن أروض نفسى على مراجعة الصبر فيك ، لا تكاد عينى تأخذك حتى يتحلل العزم — فى كل يوم أعالج أن أراد نفسى على مكروهها ثم ما هو إلا أن أراك ، أو أن تخطر فى القلب ذكراك ، حتى أنسى كل شىء سواك ، ولا يبقى لى منى إلاك ! » .

« وماذا تريد أن تصنع بى ؟ » .

« ماذا ؟ أريد أن أحملك معى وأخفيك حتى عن عيون اخوتك ! هذا ما أريد ؟ إن رأسى ليدور حين أرى أخاك أو ابن عمك أو ابن خالك أو أحداً من الخلق ينظر إليك ! ولكن لك قدرة على المباعدة والمجافاة حين تشائين ، وانى ليخيل لى أحياناً أن تناسخ الأرواح حق وأنك أنت برونهيلده بعينها يحيط بها سور النار الذى حولها » .

« ليتني كنتها ! ! ليت حول كل فتاة مثل هذا السور من النار ! تمتحن به من ينشد قلبها ! » .

« يحسبك غرائزك النسوية سورا من النار » .

« ولكن ألا تعرف أن ما تبغى عسير لا يقع في الإمكان ؟ فما جدوى هذا الذى نحن فيه ؟» .

« أعرف ؟ من أين لى علم هذا ؟ كل ما أعلمه أن أهلك حمقى وأنهم يضحون بك فى سبيل . . . لاتضعى يدك على فمى ! دعينى أتكلم ! إنهم يحولون دوننا تقديماً لغيرك عليك وقد علموا إنك لى لا محيد عن ذلك ، عن رضى منهم أو محمولين على مكروههم ! » .

وفى هذه اللحظة دفعتها الريح إلى صدره فأسكره قربها وأخذ منه شذا شعرها . فضحك ضحكة عصبية ورفع وجهها إليه وأهوى على فمها يقبله فى بساطة كأنما كان هذا حقاً له ، وهى تجاهد وتعالج أن تفلت من عناقه ويأبى هو أن يدعها .

« انك . . . » .

وعضت شفتها وردت اللفظة التى همت بها .

« أنا أى شيء ؟ قوليها ! اقذفى بها فى وجهى ! » .

« وحش ! فظيع ! هذا أنت ! دعنى !

غير أنه لم يدعها بل ضمها وهو يضحك فى ورقة وجذل وسكر حتى همست فى أذنه .

« لم أكن أعنى ما قلت كما تعلم » .

« لم تعنه أبداً بالطبع »

وقبلها ثانية .

وقالت وقد تخلصت من عناقه :

« كيف تعيدها وقد وعدت ألا تفعل ؟ »

« أنا ؟ متى وعدت ؟ »

« كيف تسأل يا . . »

« ياوحش ! قولها ! »

« ولكن أليس لك ضمير ؟ »

ضمير ؟ ياله من سؤال ؟ بالطبع لى ضمير ! »

« لا أراك تحفل به الليله ! »

« أنا فى شغل عنه ! قبليني ! »

« أى فكرة ؟ ؟ »

« أفعلى »

« مستحيل »

« من فضلك »

« مستحيل ! قلت مستحيل »

« إذن تعالى أقبلك »

« ولا هذا »

لم لا ؟ ألا يسرك أن تكونى محبوبة ؟ »

والتفت حول خصرها ذراعه ، ووجدت شفتاه السبيل إلى شفتيها ، فهل هذا معنى أن تكون محبوبة ؟ وهل هى له كما سمعته يقول بلهجة اليقين ؟ إنها على كل حال لم تعد تحس أن لها فى نفسها كثيراً أو قليلا ! فياليت من يدريها ماذا أصابها ففترها وأفقدها الإرادة والقدرة على ضبط نفسها ، وعلى أنها لم تعد تكترث لذلك أو تفكر فيه فقد كان الدم يتدفق كالمجنون فى عروقها !

« أمصغ أنت »

« نعم » بصوت تخفته عربدة الشفتين فى نحرها .

« إنى أعلم أنى وقعت من قلبك . لا شك فى ذلك ، وإلا ما فعلت الليلة ما فعلت ، ولكن أية فتاة تستطيع أن تفتنك عن نفسك ساعة . وما أحب أن يكون هذا أثرى عندك ولا أن يسهل تلهيك عنى وتعللك بالدنيا ، ولقد أردت أن أهبك ما تذكرنى به — ما يطيل أدكارك لى . ألا تفهم الآن لماذا تركتك تقبلنى هكذا ؟ إنه الزهو والغرور والأنانية . .

« بل قولى إنه الحب . . . » .

« هو هذا وذاك ، ولكنى أردت أن تذكرنى . . » .

« أو تحسبين أن نفسى ستطيب عنك ؟ » .

« أخشى ! » .

« لماذا ؟ » .

« كل امرىء ينسى القبلة بعد أن تبرد شفتاه » .

« من علمك هذا يا . . . » .

والتقت شفاههما فى قبلة طويلة ، ثم تناولت خديه بين راحتيها وقالت :

« دعنى أذهب الآن » .

ولكنه ضمها وهو يقول : « أدعك ؟ كلا ! أنا أيضاً أخشى أن تتسربى فى الهواء إذا تركتك » .

« كلا ! لا تخف » .

وعاطته التقبيل وخنقت صوتها العبرات وهى تلح عليه أن يدعها فسألها :

« أواثقة أنت أنك تريدين أن تمضى ؟ » .

« كلا ! ولكنى واثقة أنه « يجب » أن أذهب ».

فخلاها فتراجعت قليلا ثم أصلحت ثيابها وشعرها والتفت إليه وهى تقول : « لا يشق عليك ما يقول أهلى . وأيقن أنى . . على . . ولكن ليتنى أكون أنا على يقين من وفائك ! » .

ومضت أخف من الفراشة !

***

قال صاحبى :

« أنا صاحب هذه الذكرى . وهى كل ما خرجت به . وإنى لأحييها فى كل شهر مرة — فى الليلة الظلماء المفتقدة البدر — لأن ليلتنا كانت حالكة ، ولأن الليل أوقع ما يكون فى صدرى حين أرسل اللحظ أريد لأخرق به أحشاء الظلماء فتشف لى عن نجوم السماء ويرتد عما دونها كليلا حسيراً ، وأروع ما تكون السماء عندى ، حين تتنقل العين فى أجوازها المرعبة فلا تقطع منها سوى بيد هائلة عن بيد أشد هولا . . كذلك كانت ليلتى وكذلك أريغ أن تكون ذكراها فى مثلها . فأصعد إلى السطح واتكىء على السور وأنظر إلى السماء كما كنا ننظر . هى مفتونة بجمالها وأنا يكاد يسحقنى الرعب إذ أجيل عينى فى فيافيها اللانهائية وأقول لها فيما أقول كأنما كان يعنينى أن أنغص عليها متعتها .

« ثقى إن هذه السماء ليست مجعولة للإنسان مهما تكن علة وجودها ، وإنه لا شىء فى الأرض أو فى السماء مجعول لهذا المخلوق الذى يحسبه الفارغون مركز الدائرة ومحور الوجود ! بل ليس أقدر من هذه السماء على إشعار الإنسان ضآلته أو لا شيئيته إذا شئت » .

فتدير إلى وجهها وتقول وهى لا تفهم حرفاً من كلامى . « ماذا يوجد بين هذه النجوم ؟ » .

فأقول « يوجد – إن صح التعبير بلفظ الوجود – صحراوات فضاء مظلمة تركها من يعلم السر ، بلا شموس ، وتوجد اوقيانوسات من الفراغ لا آخر لها يجمد الفكر كلما حاول أن يتصورها . هذا ما يوجد ! » .

فتصمت ولا يبدو عليها أنها فهمت فأمضى وكأنى أحدث نفسى وقد شعرت فجأة ، على كل حبها ، كأنما بينى وبينها بعد مابين الأرض والمشترى :

« وهذه السماء التى يسحق النفس جلالها المرعب ! ويهول الخاطر أن يقذف به فى أجوازها اللانهائية . . . ليس جمالها الذى يسحرك بالخالد ولا الباقى ! حتى هذه مرجوع وهاجها رماد ! انظرى هذا النجم الذى يكاد يخبو وميضه بين اخوته نجوم الدب الأكبر ! لقد كان منذ بضعة قرون يخفق مثلها لمعانا ! فليس يخلو كل هذا الجلال من دواعى الرثاء !! وتصورى هذه النجوم كلها قد خمدت ؟ تصورى عقلك يتلمس طريقه فى سماء مظلمة خبا فيها كل ماكان يضىء !! تصورى عقلك يصطدم فى ظلمة الكون بقطعة كابية من هذه الكواكب !! نحى عينك ! غضى بصرك من السماء إذا أردت أن تستبقى بشاشة نفسك ! » .

فتفزع وتقبن على وتسند رأسها الصغير إلى كتفى هذه وتريح خدها على جانب صدرى وتعلق يسراها بكتفى الأخرى فأمسح لها شعرها حتى يزايلها الخوف ، وانى لأراها الآن كما كانت فى تلك الليلة وإن كنت أنا هنا وهى هناك : وبيننا ما بيننا من الأبعاد . وآه لو أن كل ما بيننا فرسخ أو فراسخ ! إذن لأمكن أن نبتسم ! وقد يعزينى – لو أن هذا مما يعزى – إننا ، سعدنا أو شقينا ، سنذهب كما ذهب من كانوا قبلنا وإن الدنيا ستومض فيها عيون غير عيوننا وتخفق فيها قلوب أخرى ، وترهق عقول جديدة وانها ستشهد أشجاء طريفة تندب ومسرات ومباهج حديثة تطلب ويستعز بها، على حين نعود نحن كما سيعود كل شىء قبضة من تراب !

ولكنى أحيي هذه الذكرى على خلاف ما تتوهم ، فإن الهواء هنا لم يهف باسمها ولا خفق على موجاته للشدو بمفاتنها ، والعيون التى تجتلى هذا الفضاء الرهيب لم تتلاق مع لحاظها ، وظلها لم يرتم على هذه الرمال ، وقدمها الدقيقة لم تطأ ذراتها — كلا ! ما من شئ هنا يعرفها أو يحمل ذكرها على صدره كما أحمل على صدرى حبها ، فسبيلى أن أعتمد على سور السطح وأظل كذلك حتى أعود وقد شاطرت ما حولى عدم الشعور بها ! » .

ثم أمسك وقال بعد إطراقة قصيرة :

« والآن فلنشرب كأسا على هذه الذكرى » .

المفعول المطلق

ليسمح لى القارىء أن أكون كما خلقنى الله ، وأن أسوق إليه الكلام على طريقتى التى أوثرها والتى تلائم مزاجى ولا تنافى ما بنيت عليه . وقد شاء ربك أن يخلقنى بعين لا تفتأ كلما وقعت على شىء تنثنى مرتدة إلى نفسى تدير فيها حملاقها مفتشة باحثة منقبة ثم يهتف بى هاتف من ضمير الفؤاد أن هات «المسطرة» فأمد إليها يدى وأذهب أقيس الأبعاد بين ما كنت وما أنا اليوم .

وقد اتفق لى أمس أن ذهبت إلى « إدارة الجريدة » فى شأن لى فجاءنى من وكلت إليه الإشراف على تحريرها فى غيبتى يسألنى أن أراجع كلمة كتبها أحد الزملاء ، فيها إشارة إلى اصطلاح نحوى فلما كان الليل آويت إلى فراشى وفى مرجوى أن يجيرنى النوم من أوصاب ما أعانيه فرأيت فى منامى ، وقلما أذكر أحلامى ، كأنى بلمتى التى وخطها الشيب — قد عدت تلميذاً ، وكان شيخ من أساتذتى ، رحمه الله ، يختبر الفرقة فى « المفعول المطلق » ولكن الأستاذ كان فيما بدا لى أشبه برئيس جلسة منه بمعلم صبيان ، وكان كلامنا نحن التلاميذ « الكبار » أشبه بالخطب والمناقشات البرلمانية .

ثم أفقت من حلمى وابتسمت ، فقد ذكرت بحلمى هـذا الذى جره على زميلى ، أستاذاً لى فى التعليم الابتدائى أعياه أن يفهمنى «المفعول المطلق» ويوقفنى على « سره » ويحـل لى « لغزه » وكان كلما عرضت مناسبة ، يقول لى « يابن عبدالقادر » — فأقول « نعم » .

فيسألنى : ماهو « المفعول المطلق» ؟

ولم يكن من عادتى أن أحمل شيئاً —وبخاصة هذا المفعول المطلق— على ظهر قلبى من كتب التعليم . فكنت أقف جامداً ، وفمى مفتوح وعينى إلى وجهه ،

ولسانى كأنما استل من حلقى ، ويدى تغمز جارى الحافظ الذى لا يهمل حتى يهمس بالتعريف المطلوب فألقيه إليه وأهم بالجلوس وقد ظننت أنى نجوت ، وكان يعرف أنى محاج الإذن فيسألنى الإعادة فأتلعثم وألعن من أصبحت على وجوههم ! وقد يتجاوز عن الإعادة ويقول « مثل » وهنا الطامة الكبرى ؟

« مثل » !؟ وكيف آتيه بمثال لمـا انتهيت منه إلى اليأس من فهمه ؟! وكثيراً ما كنت قبل ابتداء الدرس اتفق مع جار لى ابله على أن ينهض فى أثرى ويجيب عنى إذا أعيانى سؤال غير منتظر فكان يبر بوعده ويفعل فيتحول إليه سخط المعلم ، ويحل به وحده غضبه ، فأدعهما وأقعد وأنجو بهذه الحيلة التى لم تكن تجوز إلا على هذا الحار المغفل ؟

مر ببالى هذا وما إليه من حوادث الصبا على عهد التلمذة ، كما تمر أشرطة الصور المتحركة على عين الناظر ، فقلت لنفسى — وأنا مستلق على فراشى — إن من حق المفعول المطلق أن يكون له هذا الشأن فى صدر أيامى فقد كان له شأن ضخم فى حداثة الدنيا أو من عليها من الأدميين وكما أن آباءنا الأولين لم يعرفوه إلا بعد عصور لايعلم طولها إلا الله ، من معاناة أزم التعبير عما فى نفوسهم كذلك أنت « يابن عبد القادر » لاعيب عليك إذا كابدت منه نصباً .

والواقع أن هذا « المفعول المطلق » يمثل فى تاريخ النشوء اللغوى خطوة انتقال اتسع بعدها الأفق ورحب على أثرها المجال ، وتفتحت أبواب التعبير المغلقة . واللغات ، كما يعلم القارئ أو كما لا يعلم ! — لم يجدها الإنسان تامة ناضجة مستوفية كل مايحتاج إليه الرجل للعبارة عن مراده ، وإنما نشأت على الأيام واتسعت شيئاً فشيئاً على قدر الحاجة وهى لاتزال إلى الآن — وستظل — تنمو وترحب وتحيط بما كانت تقصر عنه أداتها . ومن شاء أن يقدر فضل المفعول المطلق على اللغة وعلى العقل الإنسانى أيضاً فليتصورها مجردة منه ولينظر إليها كيف تعود ؟ أو إلى أى حد تضيق ؟ وقد يتعذر تقدير ذلك على

وجه الدقة لأننا الآن ميراث واحد لها جميعاً . ولكن مادلالة هذا ؟ ولأى غرض نورده ؟ دلالته القريبة أن الشعوب التى تتشابه لغاتها فى هذا وغيره كانت قد اجتازت مرحلة البداوة وقضت أزمنة مديدة فى ظل السلام قبل أن تتفرق ويذهب كل منها فى ناحية وتكتسب كل لغة على أثر هذا التفرق شخصيتها وطابعها الذى تمتاز به ، فنشأت فى كل شعب أجيال نحتت لنفسها ما تحتاج إليه من ألفاظ الحرب والمغامرة .

* * *

دارت بنفسى هذه الخواطر وأنا راقد ، وعينى تنظر من النافذة إلى القمر الذى ينام ضوءه اللين على صدرى فمددت يدى ، إلى المنضدة المجاورة وقد أنسانى النظر إلى القمر أنى لم أعد أعنى بإعداد الورق والأقلام إلى جانبى قبل أن أنام وأنى انقطعت منذ سنين عن استيحاء بنات الليل واستلهام طيوف الظلماء ، وإنه ردنى عن ذاك وصرفنى عنه من جعل حاجتى إلى هذه الزجاجات من الدواء .

الذكـــورة والأنوثة

١٠ فبراير . . . الناس في هذه الأيام آنق أزياء ، وأنظف ثياباً ، وأبهج بزة منهم في أى عهد مضى . ولست أذكر أنى قبل خمسة وعشرين عاماً أفندياً يلبس طربوشا مبطنا بالخواص والحرير ، أو يرتدى غير السترة الأستامبولية القديمة ذات الزرارين اللذين يجمعان طرفى بنيقتها على الرقبة والتى يبدو فيها المرء كأنه مربوط من عنقه ، حتى الاحذية كانت أكثر ما تكون سوداء ، ولم تكن الأقمصة الافرنجية تتعدد ألوانها وكان الأغلب فيها أن تكون بيضاء لامعة قوراء ، ولم يكن الشيوخ يعنون — على الأعم — بأحكام التفصيل ودقة انسجام القفطان أو الجبة على أبدانهم أو بتحرى أن يكون لون « الحزام » مجاوباً لصبغة القفطان ، أو بأن تكون لفه « الشال » على طربوش العمامة بارعة الشكل تخفى من الطربوش بقدر وتبدى منه بقدر ، أما النساء فكان زيهن إذا برزن إلى الشوارع يصد العين عن النظر ولم يكن الواحد يدرى أهى آدمية تلك الملفوفة فى ملاءتها ام حشوها — زف يبعثره الريح فالآن صارت العين تتعب من النظر إلى مجالى الذوق حتى فى الطرقات ودع عنك المجتمعات والسهرات نعم لا فرق الآن مثلا بين أزياء المحصنات وغيرهن ، ولكن لا بأس ، سيتميزن بغير الأزياء . وصحيح أن الرجال والنساء تقاربوا — حسن أيضاً ليس فى الامكان أبدع مما كان !

* * *

١١ ... لا أدرى ممن سمعت ؛ أو أين قرأت هذه العبارة وهى أن الله سبحانه وتعالى وكل إلى ملك معين من ملائكته أن يسبح بحمده جل وعلا على أن أنعم على الرجال باللحى وعلى النساء بالشعر الطويل . والله وحده أعلم بصحة ذلك ولكنى أحسب الملك الموكول إليه هذا الواجب — إن

صح الخبر – قد جدت على صوته نبرة تهكم لاذع – علينا نحن بنى آدم الفانين .

ومع ذلك لماذا ؟ أمن أجل أن النساء يقصصن شعورهن ويتشبهن بالرجال فى بعض أرديتهن ، وأن الرجال يحلقن – معذرة ! فسيختلط الأمر بكرهى وكرهكم – يحلقون شواربهم ولحاهم ويتخذون من الثياب مالا يخلص الهواء بينه وبين الجسم – أمن أجل ذلك يكون الأمر مدعاة لنبرة سخر ترتفع من تسبيحة الشكر ؟ إن الصحيح فسيولوجيا هو أن الآدمى خليط من عناصر الذكورة والأنوثة ، وأن نسبة هذا الخليط لا معروفة ولا محدودة ، وإن درجات التفاوت فيها كثيرة وإن هذه العناصر يقوى بعضها أو يضعف على مدار الحياة فلكل واحد من الذكور حظ ضئيل أو كبير من الأنوثة ، ولكل أنثى نصيب كذلك من الذكورة ومن هنا يكون الشاب الذى هو فى رأى العين وفى إحساس النفس به وتقديرها لصفاته ، أشبه بالأنثى ، ومن هنا أيضاً النساء المترجلات أو اللواتى هن بالرجال أشبه وإليهم أقرب .

والمعضل الذى يعنينى أن احله هو : هل فقد الرجال ما كان لهم فيما مضى من القدرة على اجتذاب المرأة والاستيلاء على هواها بما كان لهم من صفات طبيعية ؟ أم أصبحت الرجولة التى كانت تجدى عليهم قديماً فى معركة الجنسية لا تنيلهم شيئاً الآن ؟ أم ضعف إحساس المرأة بهذه الصفات وانحط تقديرها للمزايا الجنسية الطبيعية ؟ أو اجعل السؤال من الناحية الأخرى : شهدنا زمنا كانت فيه المرأة إذا بدا منها خنصرها من تحت الملاءة أو ما يماثلها ولمحته عين الرجل شهق وفهق وانتابته كالحمى فالآن تبدو له نصف كاسية – أو نصف عارية – وما استتر من جثمانها فى حكم الظاهر من فرط الدقة فى جعل التفصيل كفيلا بعرض المحاسن وجلو المفاتن ، ومع ذلك لا يكاد الرجل يزيد على الاعراب عن الاعجاب الفاتر ، فهل

تبرز المرأة الآن على هذه الصورة المجلوة لأنها تحس أن صفات الرجولة في الرجل قد ضعفت ؟ أم هي بدأت تتجرد وتتزين شيئا فشيئاً وسايرها هو في أحساسه بجلوتها فألف هذا التجرد والتزين درجة فدرجة فهي أبدا تعالج إن توقظ إحساسه بالجديد فالأجد وهو لا يكاد يألف جديداً حتى يفتر عن إجابة ما يهيب به منه ؟

* * *

١٢ . . . نسيت أمس الحرب العظمى وما أفقدت الرجال وكلفت جنسهم من خسارة فادحة في مادة الرجولة لا تعوض في الاجيال . وكيف احتاج الأمر أن يحل النساء محل الرجال وأن يملأن فراغهم في شتى الأعمال وكيف أنمى ذلك صفات الذكورة فيهن وكيف تحفظن بالمنزلة التي رقين إليها ولم ينزلن عنها ثم انتقلت عدوى ذلك من الغرب إلى الشرق كالعادة .

مثال لتأثير الحرب ... موافقة مجلس العموم الانجليزي بسهولة وسرعة على تخويل المرأة حق النيابة عن الأمة كالرجل وقد ظلت النساء في انجلترا يجاهدن أعنف جهاد بضع عشرة سنة لينلن حق التصويت فقط ! الخ الخ .

الانسان مخلوق غير شريف

فبراير ١٥ ... يخيل لى أن الشرف والنزاهة وعفة اليد وسائر ما يجرى هذا المجرى ، مما لم يركب فى طبع الإنسان ولم يفطر عليه ؛ ومعنى ذلك بعبارة أخرى أن الإنسان بطبعه مخلوق غير شريف ! ! والدليل حاضر . وهو هذه الآلاف من الأوامر والنواهى والأقاصيص وما إليها مما يقصد به الحث على هذه الفضائل ومجانبة اضدادها . ولو أن الإنسان كان كذلك بفطرته وكان الأغلب والأعم فيمن تلقى من الناس عفيفاً نزيها شريفاً لما احتاج الأمر إلى كل ما فى هذه الكتب مما أشرنا إليه . وكثيراً ما خطر لى أن أسأل : لماذا اتفق أن تجد من يحضك على مزاولة هذه الفضائل وأخذك نفسك بها ولا تجد واحداً يأمرك بخلافها مثلا . فيقول : إذا استطعت أن تسلب ما فى يد غيرك فافعل ! أو احذر أن تدع ما فى جيوب الناس يبقى فى جيوبهم ولا ينتقل إلى جيبك ! الخ الخ ! أليس ذلك لأن الأصل فى الإنسان هو التطلع إلى غير ماله والرغبة فى غصبه أو انتهابه أو الاحتيال على استلابه فالحث عليه تحصيل حاصل ؟

وأحسب أن من الأدلة على أن الأصل فى الإنسان هو هذا أن فى كل مصلحة كبيرة من المصالح — حكومية أو غير حكومية — نظاماً دقيقاً للمراجعة يضطر الناس إلى الأمانة أرادوا ذلك أم لم يريدوه ، ويحول دون من تحدثه نفسه بالاختلاس . فأكثر الناس لا يختلسون لا لأنهم أشراف أمناء نزهاء ، بل لأن السبيل مكتظة بالوعور والعاقبة غير مأمونة ولست ممن يستطيعون أن يصدقوا أن هذا الصراف الفقير الذى لعله ترك بيته وعياله دون ما يكفى لقوتهم ، يعف عن رضى بقسمته وقناعة بحاله ، عن قبضة مما يدخل الخزانة التى هو قائم عليها وفى يده مفاتيحها .

ولولا الصعوبة وخوف التورط فيما لا يسهل الخروج منه لغش كل إنسان كل إنسان . ولكن من العسير أحياناً أن تركب الترام إلى حيث تريد دون أن تنقد العامل ثمن التذكرة . وأشق من ذلك كثيراً وأوخم عاقبة أن تسافر على قطار حديدى بلا تذكرة . وإنى اعترف أنى إذا كنت على شيء من الشرف والذمة والأمانة والنزاهة فليس ذلك لأنى خلقت متحلياً بهذه الفضائل ، بل لأنه ينقصنى القدر الكافى من الجرأة والإقــدام ، أو بعبارة أخرى لأن نصيبى من الجبن فوق المتوسط ، فليس لفضيلة فى إنى لا أنشل ما فى جيوب الناس إذا لاحت لعينى متضخمة بما فيها من أوراق النقد ، ولكن لأنى أجد نشل الجيوب أشق على وأبعد مطلباً من الكتابة باللغة اليونانية التى لا أعرفها . وكثيراً ما تخايلنى التحف الثمينة فى الحوانيت من وراء الألواح الزجاجية فاشتهى أن تكون لى بلا ثمن ، وأتمنى لو استطعت أن أمد إليها يدى ثم أمضى فى سراح ورواح وأمن واطمئنان . ولكن هذا الخاطر وحده ! دع عنك الفعل نفسه ، يحلل قواى ويفكك أعصابى حتى لأحس أن بى حاجة إلى من يأخذ بيدى ويعيننى على السير . وربما فكرت فيمن يزيفون ورق النقد ويتخذون ذلك حرفة ومتجراً فيطير النوم من عينى ليالى عدة حول ما يقدمون عليه من المخاطر . وما أظن بى لو أنى كنت نشأت بين اللصوص والسراق ، إلا أن جبنى كان قميناً أن يؤدى إلى تنبيه الشرطة والحراس إلى ما أنوى حتى قبل الشروع فيه ، لفرط ما أقدر أنه كان ينتابنى من الاضطراب .

والحقيقة أن خراب الذمة يتطلب سكوناً فى النفس ، وإن شئت فقل بروداً فى الطبع ، وجرأة فى الجنان ، وقدرة على الاحتيال ، ومضاء فى العزيمة ، وليس لى من ذلك كله نصيب . ولذلك ترانى إذا غشنى إنسان عفواً أو عمداً وأعطانى قطعة مزيفة من النقود لا أجرؤ - إذا فطنت إليها - أن أمد بها كفى إلى أحد على أنها صحيحة ، بل أخفيها عندى أو انتظر حتى أصير إلى طريق مهجور ثم أطوح بها بكل ما فى ساعدى من قوة كأنما

أريد أن أجعل بيني وبينها أطول ما يمكن من المسافة . وآه لو مررت بشرطي وهي لا تزال في جيبي ؟ آه من الاضطراب الذي يصيبني ويخيل لي أن عين الشرطي قد نفذت من الثياب إلى حيث القطعة المغشوشة وأنه يهم أن يعدو ورائي ليقبض علي ! وتراني حينذاك أسير وأتلفت وقد أضرب في طريق غير طريقي لأتوارى عن هذه الأعين التي لا تمنعها كثافة الثياب أن تطلع على ما في الجيوب من مغشوش ؟

وحدث مرة أني سمعت رجلا يباهي بأنه أنقد (جرسون) قهوة قطعة مزيفة من ذات الخمسة القروش دون أن يفطن إليها فحسدته وتمنيت على الله أن يرزقني بعض هذه الجرأة والثبات ! وشر من ذلك وأدهى ، وادعى إلى الغيظ والسخط على النفس ، إني ما استطعت قط أن أدع أحداً – تاجراً أو صرافاً مثلا – يعطيني أكثر مما لي . وفي الناس من يستبضع ما شاء وينقد البائع الثمن ويتناول الباقي ويعده ويجده أكثر مما يستحق فيدفعه إلى جيبه في هدوء تام ويمضي عن الدكان دون أن يختلج حتى جفن عينه . مثل هذا أغبطه ولكن محاكاته عزيزة المنال مع الأسف ! وتالله ما أحسن استقباله لما يجيئه به الحظ ! ما أبرع ركوبه للمد في عباب حياته ! ما أشد شكرانه لما يناله بغير كد أو تعب !

واتفق مرة أن كان في بيتي عمال يبنون حائطاً .. ، وكان صاحب البيت قد أنقد أحدهم الأجرة مقدماً فاشتغل يوماً وانقطع أياما ثم عاد فسألته أين كان فقال وهو جذلان والله يا أفندي الحقيقة أني بعد أن أخذت الأجرة من عمي . . . . سهرت ليلتي تلك وشربت قليلا ومن حسن الحظ أني أنقدت الخادم ورقة بنصف جنيه فرد لي ثلاثة وثمانين قرشاً ظناً منه أني أنقدته جنيها فحمدت الله الذي رزقني من حيث لا أحتسب وأحييتها ليلة في أثر أخرى .

قلت « نعم هذا حظ غريب ، ولكن ألم تنازعك نفسك ولو لحظة

أن تخبر الخادم المسكين أنه أعطاك بخمسين قرشاً فوق مالك ؟ » .

فحملق العامل فى وجهى وصوب نظره فىّ وصعده ثم حول وجهه عنى والتفت إلى عمله دون أن ينبس بحرف . وما أشك فى أنه كان أعمق ما يكون اقتناعاً بأنى مجنون ، من العبث الكلام معه .

وقل أن تجد من يصارحك بفساد بذمته كما فعل هذا العامل . والناس فى العادة أكثر ولعاً بالكلام على فساد ذمم سواهم . وكثيراً ما يخيل لى إذ أحادث واحداً من سواد الناس فى أمثال هذه الموضوعات أنى وإياه الرجلان الشريفان فى هذا الكوكب الحافل بالأنذال .

في الشعر الجاهلي

تأليف الدكتور طه حسين
أستاذ الآداب العربية بكلية الآداب بالجامعة المصرية

من أشق مباحث الأدب العربي ، ذلك العهد الذي يسمونه « بالجاهلية » وإن كان ما أثره الرواة عنه وقالوا إنه انحدر إلينا منه ، لا يختلف عن جني غيره من العصور الإسلامية في شيء . فالروح واحدة ، والنظرة إلى الحياة متفقة . والوجهة متحدة ، والكلام مستقيم على أوزان وقواف غير مضطربة بين هذه العصور ، وأسلوب التفكير نهج غير متعدد ، حتى العبارة نفسها لا يكاد يعتورها تغير جوهري . فما هو هذا العصر الجاهلي إذن ؟ إنه عصر يعرفه الفقهاء ومن يبغون أن يقيموا حداً بين الإسلام وما قبله ، أما مؤرخ الأدب فمعذور إذا أنكر أن له سمة يتميز بها وينفرد فالجاهلية التي انتهى إلينا ماروى من أخبارها وأيامها هي جاهلية دينية واجتماعية إذا شئت ، ولكنها من حيث الأدب شيء آخر مختلف جداً لا يسع الأديب إلا أن يقف حيالها متردداً شاكا بل رافضاً كما فعل الأستاذ الدكتور طه حسين في كتابه « في الشعر الجاهلي » .

ولكل أدب آنفته الساذجة وحداثته المتعثرة كما لكل شيء آخر في هذه الحياة — يصدق هذا على الجماعات صدقه على الآحاد، وعلى العلوم والآداب وسائر ماينشأ في دنيانا هـــــذه ولكن الأدب العربي ليس له أول يعرف ولا نشأة توصف إذ أقدم ما وقع إلينا منه — على قول الرواة — بشحم كلاه ، إن صح هذا التعبير ، ونعني بذلك أن هذا القديم مستو بالغ أشده وأن الأطوار الأولى التي لا بد أن يكون الأدب قد تقلب فيها ومر بهـا ،

كغيره من آداب الشعوب الأخرى ، حتى تناهى شبابه على النحو المأثور ، نقول إن هذه الأطوار مفقودة ضائعة لا سبيل إلى العلم بها والوقوف عليها إلا تخيلا وإلا بالطبع فى التخيل على غرار ما حدث للآداب الأخرى التى وقفنا على أصولها ونشأتها ، وإلا بأن نرسم لأنفسنا خط التطور طبقاً للسنن الطبيعية «فالشعر الجاهلى» وصف غير صادق لأن جاهلية الأدب مطوية مع الأزمان التى غبرت ، وليس من المعقول ، ولا من المقبول ، أن يكون هذا الشعر المأثور أو ماقاله العرب لأنه شعر ناضج متساوق الأغراض مطرد النظام ، فيه فن وصناعة ، ثم هو بعد ذلك تعبير فيه خلط بين الأدب والدين .

وليس ثم مايمنع أن يكون الشعر قد قيل قبل الإسلام ، بل الذى يرفضه العقل هو ألا يكون الشعر قد قيل قبله ، ولكن هل مايعزى من الشعر إلى من عاشوا فى العصر الجاهلى صحيح النسب غير ملزق بهم ؟ وهل إذا سألت هذا الشعر عن نسبه ينتمى إليهم ويعتزى بهم أم ينطق تكوينه ومنحاه وأسلوبه بأنه دعى دخيل ؟ ؟ هذان هما السؤالان اللذان يلقيهما كل أديب على نفسه . وقد تناولها الدكتور طه حسين فى كتابه « فى الشعر الجاهلى » وطرح السؤالين جميعاً وكان جوابه الرفض !

ولم يأخذنى الدكتور طه على غرة بهذا الكتاب فما أعرفنى قرأت شيئاً من أخبار هذه الجاهلية أو شعرها أو خطبها إلا نازعنى فى أمره شك ضعيف أو قوى ، وإلا حكت فى صدرى منه أشياء كثيرة أو قليلة . وأشهد أن الدكتور كان بارعاً فى بسط رأيه وفى إبراز الشبهات التى تحوم حول هذا وتضعف الثقة بنسبته إلى الجاهليين ، وفى تأكيدها أيضا . ومن واجب كل متأدب أن يطلع على هذه الرسالة التى جاءت — على خلاف عادة الدكتور — خالية من كثير من حشوه المألوف ونحسب أن لا خلاف فى ضرورة هذا البحث مهما تكن النتيجة التى يخرج بها المرء ، وأن من الحماقة أن نسترسل فى الاستنامة إلى ماجاء فى الكتب القديمة وإن كان كل شيء يدعو إلى الريب ويغرى بالنقد ، وأن نوصد بأيدينا فى وجوهنا أبواب التفكير مخافة أن يظن

بنا العقوق والتمرد على ما خلف لنا السلف ، أو مدفوعين إلى ذلك بحكم النزعة الإنسانية إلى التسليم ، فما زال التصديق أسهل من البحث ، والإقرار أيسر من النقد ، والجمع أهون من الوزن وأمتع وألذ أيضا . وما من أحد نزع إلى النقد إلا اضطر أن ينبذ بعض ما يقع إليه وفى هذا الإطراح خسارة متوهمة .

والنقد مهمة قاسية ، وما أكثر ماتكون بغيضة إلى الفراء ، ولكنا لا نعرف أحدا أحرى بالعطف وأحق بأن تلين له الأفئدة من الناقد ، فهو لا يجد – كالكيميائى – كل شيء حاضرا مهيأ فى معمله ، وليس أمامه شيء من تلك الملاحظات المنظمة المدونة التى تغنى عن الشهود وتقوم مقام المعاينة بل عليه أن يفحص كل ماتقع عليه يده ليستجلى غوامضه ويمحص حقائقه إن كان ثم حقائق يمكن استخلاصها ، وأن يخطو بحذر ويتوخى الاحتياط إذ كان العقل الإنسانى نزاعا إلى التساهل ميالا إلى تناول مايتطلب الدقة ، بغير احتفال أو تدبر ، وما رأيت أحدا ينكر فائدة النقد ومزيته وضرورته ولكن الإقرار بذلك أسهل من المعاناة . وحسبك أن تفكر فى القرون العديدة التى مضت وعصور المدنية التى انقضت قبل أن يظهر « فن » النقد فى العالم حتى فى عصرنا هذا لا يأمن المرء على الطالب أن يقع فى الأخطاء القديمة . لأن النقد يحيد بالمرء عن اتجاه الذهن فى العادة . وقد تعلم أن الميل المدنى هو التصديق والترديد حتى حين يختلف ما يتلقاه بالتصديق عما انتهى إليه من الآراء والملاحظات .

ألسنا فى حياتنا اليومية نتقبل بلا تمييز أو تمحيص ما يتأدى إلينا من الإشاعات والأنباء التى لا تعرف لها مذيعاً ولا تدرى ما مصدرها ؟ وقد نشذ أحيانا عن ذلك ونجنح إلى الشك والتنقيب عن أصل الخبر وقيمته ونحاول امتحانه ولكن هـــذا لا يكون منا إلا بدافع من سبب خاص ، أما إذا كان مايتصل بنا غير مستحيل فى ذاته ولا بعيد التصديق

ولم يبلغنا ما ينقصه أو ينفيه فانا نزدرده ونفرح به وقد نضيف إليه ونزيد عليه !

وقد لايجهل القارىء أن المرء حين يلقى نفسه فى الماء تكون حركاته الطبيعية الأولى من شأنها أن تؤدى إلى الغرق . وأن السباحة معناها اعتياد المرء الامتناع عن هذه الحركات اللدنية والقيام بغيرها ، وكذلك النقه ليس بالعادة الطبيعية وإنما هو شيء يكتسب .

وقد تخالف الدكتور طه إذا عز عليك التخلى عما درجت عليه ، أو توافقه على كثير أو قليل مما يذهب إليه إذا آثرت التعويل على العقل والمنطق ، ولكنك لا تستطيع على الحالين إلا أن تقدر جهده وإلا أن تقر بقيمة هذا البحث الطريف . وما من ريب فى أن الأكثرين يشق عليهم أن ينفضوا أيديهم مما عاشوا مطمئنين إليه ، غير أن الشعر الجاهلى لايصيبه شيء ، فهو باق كما هو ، لم يحرقه الدكتور ولا سواه من خلق الله وكل ما يجد أن نسبته تتغير أو تصحح . وما أحق ذلك بأن يكون رواية ممتعة . وإنها لكذلك فى كتاب الدكتور .

وهنا موضع التحرز : فلسنا نقول إن بحث الدكتور طه قاطع فى اثبات ما ذهب إليه وما نشايعه عليه من الرفض ، ولكنا نقول إن حجته أقوى من حجة القدماء . وأن رسالته ليست أكثر من باب فتحه لطالب الأدب الجاهلى إذا أراد أن يصل إلى نتيجة يسكن إليها العقل ، وأنها لم تخل من المآخذ ولم تبرأ من السقاط وأن أولها خير من آخرها ، وصدرها أمتن من عجزها ذلك أنه لم يوفق فى التطبيق ولم يأت بشيء له قيمة ، ولوزهيدة ، حين أراد أن يتناول الشعر الجاهلى بالتفلية بعد أن مهد لذلك ببحث أسباب الانتحال ودواعيه .

ولا يأس من أمثلة تجلو للقارىء ما نريد .

يقول الدكتور فى رسالته ان « امرىء القيس . . . . يمنى وشعره قرشى اللغة لا فرق بينه وبين القرآن فى لفظه واعرابه ومايتصل بذلك من قواعد الكلام ، ونحن نعلم . . . أن لغة اليمن مخالفة كل المخالفة للغة الحجاز ، فكيف نظم الشاعر اليمنى شعره فى لغة أهل الحجاز ؟ بل فى لغة قريش خاصة؟ سيقولون نشأ امرؤ القيس فى قبائل عدنان وكان أبوه ملكا على بنى أسد وكانت أمه من بنى تغلب وكان مهلهل خاله ، فليس غريباً أن يصطنع لغة عدنان ويعدل عن لغة اليمن ولكنا نجهل هذا كله ولا نستطيع أن نثبته إلا من طريق هذا الشعر الذى ينسب إلى امرىء القيس ونحن نشك فى هذا الشعر ونصفه بأنه منتحل .

وإذن فنحن ندور : نثبت لغة امرىء القيس الذى نشك فيه ! » إلى أن يقول « وأعجب من ذلك أنك لا تجد مطلقاً فى شعر امرىء القيس لفظاً أو أسلوباً أو نحواً من أنحاء القول يدل على أنه يمنى فهما يكن امرىء القيس قد تأثر بلغة عدنان فكيف نستطيع أن نتصور أن لغته الأولى قد محيت من نفسه محوا تاماً ولم يظهر لها أثر ما فى شعره ؟ نظن أن أنصار القديم سيجدون كثيراً من المشقة والعناء ليحلوا هذه المشكلة » .

فامرؤ القيس يمنى ، والشعر المعزو إلى امرىء القيس عدنانى اللغة قرشيها. وهذا حسن ولكن أحسن منه أن الدكتور حين تناول الأبيات المنسوبة إلى امرىء القيس رفض بعضها وقبل البعض الآخر — وإن كانت كلها عدنانية قرشية ! ! رفض مثلا هذين البيتين :

وليل كموج البحر أرخى سدوله ... على بأنواع الهموم ليبتلى
فقلت له لما تمطى بصلبه ... وأردف اعجازاً وناء بكلكل . .

وقبل هذا البيت الذى يتلوهما :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى بصبح وما الاصباح منك بأمثل

فلماذا ؟ أهو يمنى اللغة دونهما ؟ أفيه شيء يخالف لغة عدنان وقريش التى نزل بها القرآن من حيث اللفظ أو الإعراب وما يتصل بذلك من قواعد الكلام ؟ أم وقعت المعجزة وبلغ من تأثر الشاعر بلغة عدنان أن محيت لغته اليمنية من نفسه محواً تاماً فى هذا البيت فقط .

وقد وقع الدكتور فى مثل هذا الخطأ عينه لما تناول شعر عبيد وعلقمة وعمرو بن قميئة ومهلهل وبن حلزة وطرفة بن العبد الخ الخ وإن اختلفت القبائل .

وهو مع جنوحه إلى رفض القصص المنحولة يتقبل قصة الفرزدق وإن كانت أشبه بالمنحول منها بأن تكون حقيقية ونعنى بها زعمهم أنه خرج فى يوم مطير إلى ضاحية البصرة وانتهى إلى غدير فيه نساء . فقال ما أشبه هذا اليوم بيوم دارة جلجل ثم انصرف فصاح النساء به : « ياصاحب البغلة» وعزمن عليه إلا ما حدثهن بحديث دارة جلجل قالوا فقص عليهن قصة امرىء القيس وأنشدهن قوله :

ألا رب يوم لك منهن صالح ولا سيا يوم بدارة جلجل

ومن سقاطه أنه يذكر « ابتذال » اللفظ ، ويعنى أنه مأنوس غير حوشى ، ويتكلم على المتانة والجزالة ويريد بهما حشو الكلام بالغريب الذى يحتاج المرء فى فهمه إلى مراجعة معاجم اللغة . وهو ما لا يغتفر لرجل تذوق الأدب بله من يدرسه فى الجامعة ، ومن ذلك قوله عن قصيدة جليلة فى رثاء كليب أنها شعر « لا ندرى أيستطيع شاعر أو شاعرة فى هذا العصر الحديث أن يأتى بأشد منه » « سهولة ولينا وابتذالا ؟ » والأبيات التى يشير إليها هى :

جل عندى فعـل جساس فيا   حسرتى عما أنجلى أو ينجلى
فعل جساس على وجـدى به   قاصم ظهرى ومدن أجلى
يا قتيلا قوض الدهر به   سقف بيتى جميعاً من عل
هدم البيت الذى استحدثته   وانثنى فى هـدم بيتى الأول
خصنى قتـل كليب بلظى   من ورائى ولظى مستقبلى
ليس من يبكى ليوميه كمن   إنمـا يبـكى ليوم ينجلى

وهى أبيات ليست فيها ابتذال بالمعنى المفهوم . ومن نظرياته أن لغة الكلام عند العرب قبل الإسلام كانت وعرة حوشية !! أنظر قوله « فإن فى قصيدة ابن كلثوم هذه من رقة اللفظ وسهولته ما يجعل فهمها يسيراً على أقل الناس حظاً من العلم باللغة العربية فى هذا العصر الذى نحن فيه ، وماهكذا كانت تتحدث العرب فى منتصف القرن السادس للمسيح وقبل ظهور الإسلام بما يقرب من نصف قرن » فمن أدراك يا دكتور ؟؟ ويالها من صورة معكوسة اللغة فى ذهن الدكتور !!

وقد أطلنا جداً والصحيفة لاتتسع للأفاضة . ولذلك نختم كلامنا بأن الباب الثالث من الكتاب أشبه بتخبط الطلبة منه بأبحاث الأساتذة . فليته استغنى عنه . وأن الدكتور ليحسن جداً إلى نفسه إذا تحاشى الخروج من النقد العام الذى يسهل مع التحصيل ، إلى النقد التطبقى أو الدراسات الفردية :

مؤسسة دار
الشعب
٩١ شارع قصر العيني بالقاهرة
تليفون ٣١٨٤٠٠